

فيليب شيبوب

اقرا

دور
كتاب

عبد الرحمن الجبرتي

دار المعارف بمصر

عبد الرحمن الجبرتي

خليل شبيب

عبد الرحمن الجبرتي

٧٠

اقرا

دار المعرف للطباعة والنشر بمصر

اقراء ٧٠ — سبتمبر سنة ١٩٤٨



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بـبصرة

كان للشيخ نور الدين حسن الجبرتي - والد المترجم له -
 وكنيته أبو التّداني ثلاثة منازل بالقاهرة أحدها بالأبزارية على
 شاطئ النيل والثاني تجاه جامع مرزّه جوريجي ببولاق والثالث
 في خطة الصنادقية شمال الجامع الأزهر .

وله في كل واحد من هذه المنازل زوج وشراري وخدم ومماليك
 وعبيد وحوار بيض وسود فهو ينتقل إلى هذا وذلك يحف به أصحابه
 وتلاميذه ومريدوه فيعقد لهم حلقات التدريس . ويملي عليهم ما
 شاء من العلوم الدينية والوضعية والعقلية والنقلية حتى إذا فرغ
 من إملائه انفض البعض عنه وانتشر البعض الآخر في الحجرات
 أو خزانة الكتب . وقد يبق منهم من يحضر الطعام معه أو
 يبيت عنده . وكان منزل خطة الصنادقية أحبها إليه لقربه من
 الأزهر فلا يتكلف المجاورون مؤونة الذهاب إلى بولاق والمسافة
 ثلاثة أميال أو تزيد وأغلبهم يخاف أن يبرى المشى نعليه ولأن
 أقرانه من الشيوخ يعوجون عليه في انصرافهم من الجامع وربما
 تناولوا وجبة العشاء معه وسهروا إلى ساعة متأخرة من الليل .
 إلا أن هذا المنزل قد ضاقت أسافله واتسعت أعاليه فتعددت

مدارجه وتشعبت مساريه ، وكلما علت السن بساكنه أعنته الصعود والنزول وكم ساومه فيه الأمير إبراهيم بك . كتحدا ومناه . ببناء دار رحبة أو شراء قصر فخيم له فأبى أن يستبدل به أى قصر أو أية دار . وكان ابراهيم بك يقول له : إن خطة الصنادقية قصيرة ضيقة متعرجة وظاهر منزلك لا يدل على داخله وأنت فيه تصعد درجات كثيرة . ثم إن الرحبة المحيطة بالأقبية السفلى ضيقة والليوان فى الصدر عند مدارج الرحبة قائم على بائكة واحدة والحجرات لا تتسع لطلابك وضيوفك مع أن خزانة كتبك مشحونة بالمجلدات النفيسة والآلات الهندسية والاصطرلابات وأدوات الصناعات وهى جميعها مركومة هنا وهناك مبعثرة على الأخونة وفى الزوايا فكيف تستهين بثروتك هذه وما ضرك لو قبلت ما أعرضه عليك

لكن الشيخ كان يعتذر دائماً ولم يجسر الأمير مع جبروته وخطرسته على تهديده أو تعنيفه لحظوته لدى الولاة والأمراء وعزته بين الأشياخ أقرانه .

وفى أصيل يوم من أيام الحريف سنة ١١٦٧ للهجرة (١٧٥٤ ميلادية) كان الشيخ حسن الجبرتى يلتقى درسه على الطلبة الملتفين حوله فى منزله بالصنادقية إلا أنه خلافاً لعادته كان يسرع فى الإلقاء ويقتضب المسائل التى يعرضها اقتضاباً

ولا يسهب في بيان أو تبين ولما فرغ من درسه انفتل عن الحلقة إلى باب في جانب البهو صعد منه إلى الطابق العلوى وتسلى الطلبة واحداً واحداً واثنين اثنين وثلاثة ثلاثة ولم يبق منهم إلا من له قضية يحققها في كتاب من كتب الشيخ المبدولة لهم في خزانته يتناولون منها ما يشاؤون ودخل البهو بعض الأشياخ من أصدقاء صاحب المنزل كانوا في الحجرة المجاورة ينتظرون انقضاء الدرس حتى يقابلوه ولما رأوه انصرف جلسوا يتحدثون .

وكان أحدهم الشيخ يوسف عبد الوهاب الدبلجى ابن خال الشيخ حسن الجبرى رجلاً وضيء الطلعة باسم الوجه تظهر عليه أمارات الذكاء والفطنة وحب النادرة والملحة وإلى جانبه رجل كهل عصبي المزاج هو الشيخ محمد عبد ربه العزيزى المالكى من خاصة الشيخ حسن ولعل ضيق دات يده كان يلزمه الإقامة بيت الشيخ أياماً وثالثهم رجل نحيل الجسم براق العينين نائىء الجبهة يلبس لباس العامة وعلى رأسه قاووق مطرز بالحرير الأصفر هو الشيخ أحمد الراشدى الشافعى ورابعهم شيخ مهيب حسن الهندام هو الشاعر الطبيب الشريف قاسم التونسى وقد أخذوا جميعاً في الحديث عن أمراء ذلك العصر الذين يسمونهم المماليك وأظهروهم في تلك الآونة الأمير إبراهيم كتحدا الذى سبقت الإشارة إليه وقسيمه في إمارته رضوان

كتخذها الخلق الذي ترك له آلة الحكم يديرها كيف شاء
وانصرف إلى لذاته وخلاعاته .

وإذا كان إبراهيم قد أنفق في مسعاه لدى الشيخ حسن
في الاستيلاء على منزله بالصنادقية فإن رضوان هذا نجح في
مسعاه لدى آل الشرايبي المشهورين في الاستيلاء على دارهم
المطللة على بركة الأزبكية وهي التي على بابها العدودان الملتفان
المعروفة عند أولاد البلد « بثلاثة واية » فأصلحها حتى كأنه
أنشأها إنشاء وعقد على مجالسها العالية قباباً منقوشة بالذهب
المحلول واللازورد والزجاج الملون وبني قصراً مطلاً عليها وعلى
الخليج الناصري من الجهة الأخرى وأنشأ في صدر البركة
مجلساً خارجاً بعضه على عدة قناطر وداخلا بعضه الآخر في
غيط المعدية . وبني كذلك قصراً داخل البستان مطلاً على
الخليج . وهو اليوم ينتقل في هذه القصور مع محظيته « سلقن »
ويجهر بالمعاصي والراح ، وواصله الملاح . وقد قصده الشعراء
ومدحوه بالقصائد والمقامات فوصلهم وأجزل صلاتهم وكان
من مدحوه أديب عصره الشيخ عبدالله الإدكاوي فأطنب في
مديحه أيما أطناب ثم جمع ما نظمه هو وغيره من الشعراء في
كتاب سماه « الفوائج الجنانية في المدائح الرضوانية » وقد
حوى هذا الكتاب عدة قصائد من نظم الشريف قاسم التونسي

أهمها قصيدة طويلة خمسة جاء فيها :

دع علة التعليل بالأمانى واقصد حمى الموصوف بالأمان
وانف لباس البؤس والأحزان واسأل عن النعيم من رضوان
قل ما تريد لا تخف من رد

قال الشيخ يوسف الدبلجى : يا سيد قاسم ألا ترى أنك
وأمثالك من الشعراء مسؤولون عن المظالم التى يجترسها الأمير
رضوان لأنكم بامتداحكم له تشجعونه على التماذى فى هذا
البذخ ، والتغالى فى هذا المحبون ؟ وهو إنما يسد نفقاته الباهظة
من المظالم والمصادرات ولا بد أن يصيبكم شىء من دعاء الناس
عليه لأنكم شركاؤه فى مسلكه وليتكم تأملتم فى أصل الرجل
ولم تقصروا نظركم على ماله وجاهه .

فضحك السيد قاسم وقال : والله يا أخى إنك على حق
واو لم أنظم قصيدتى الخمسة فيه لأرسل لى من يبطش بى فى
عطفة طريق أو فى عقر دارى وهو يعرف أنى أنظم الشعر فمدحى
له دفع السوء عن نفسى لا ابتغاء جاه أو نوال ، ولا بد أنك
تنهيت إلى أن عهده هذا خير من عهد أسلافه ، ومنذ سبع
سنين قد استتب الأمن بعض الشىء فى البلاد ، ولا أقول
هذا تبرئة لنفسى واعتذاراً عنها فى مديحى له ولكنه عندى أفضل
من غيره إذا جاز التفاضل بين الظالمين . أما مقاذعه ومفاحشه

فشر لا أزعج لنفسي أن أنهاء عنه ولست متصديراً للوعظ والإرشاد
لأن هذه مهمة سادتنا العلماء أما أنا فمهمتي تدريس الطب
في مدرسة النسيوفيين .

قال الشيخ يوسف : إن الأمر على ما ذكرت ولكن هذا
البذخ والاستهتار والفسوق والمجون مؤذنة ببوار هذه للدولة .

قال الشيخ العزيزي : وأي دولة هي يا مولانا ؟ أهى القاسمية
أم الفقارية أم القازدغلية ؟

قال الشيخ يوسف : إنك خفيف الظل يا شيخ محمد . وإنما
أعنى دولة هؤلاء الممالك كيفما سميتهم .

قال العزيزي : إن حكامنا قوم لا أصل ولا فصل ،
ألم يبلغك نبأ الحاج صالح الفلاح أستاذ الأمراء المشهورين
بجماعة الفلاح ؟ فاستضحك الشيخ يوسف وقال : نعم الحاج
الحاج صالح صاحب مصنع الممالك فتعالت الضحكات وطالت
فقال العزيزي : هو ' هو ذلك الفلاح الساذج الذي نرح من
قرية الراهب بالمنوفية إلى هذه القاهرة المنكوبة بهم وأعمل ذكاه
وفطن إلى أن ينشئ الممالك إنشاء كما يستفرخ الدجاج والحمام
فصبار يكد ويمجد حتى اقتنى شيئاً من المال استغله في شراء
الممالك والعبيد والجواري وراح يزوج هؤلاء وأولئك ولما تناسلوا
وكثرُوا فرش لهم الدور ، وتأنق لهم في اللباس ليظهرهم بمظهر

البحاء والجمال . ثم تلتطف في إدخالهم في الوجاقات والبلوكات تارة بالرشى وطوراً بالمصانعات حتى أحرزوا مراتب جليلة وأصبح الكثيرون منهم أمراء وكتخذآت واختيارية وأمراء طبليخانات وجاويشية وأوده باشيه وأربى عددهم على المائة وصارت لهم بيوت وأتباع واشتهروا شهرة واسعة ونسبوا إليه فقليل عنهم جماعة الفلاح . وقد أثرى الحاج صالح من هذه التجارة بل الصناعة ثراء عظيماً وأصبح يقرض الأمراء بالربا وقد شاب وشاخ — وهو اليوم في السبعين — ومع ذلك فهو هو متواضع مصانع يركب حميراً ويعتم بعمامة صغيرة على طربوشه والخادم وراء الحمار في عطفات القاهرة . . . هذا هو صاحب مصنع الممالك ، بل مستفرخ الممالك . قال الراشدي : كيف ترجون بقاء الدولة وهؤلاء هم قادتها وذوو الرأي فيها . ولا هم لمثل هؤلاء إلا الإثراء والتنعيم باللذات والتفاخر بالقصور يشيدونها ، والنساء والغلمان يحشدونهم فيها . وإذا رضى الله عن أحدهم بعض الرضى ألهمه أن ينشئ سبيلاً أو يبنى مسجداً وقد يبنى مدرسة أو كتاباً . والديار المصرية كلها في نظرهم هي هذه القاهرة التي يعيشون فيها بل يعيشون فيها فساداً أما القرى والخواضر الريفية فلا . . . إنها البقرة الحلوب التي يعتصرون درها وخليه النحل التي يشتارون عسلها ولا يؤودهم

أن تموت البقرة جوعاً أو يتطير النحل عن الخلية لفقد المرعى .
قال الشيخ يوسف الدبحي : هذه المآسى لا دواء لها إلا أن
يجرد مولانا السلطان جيوشه ويقضى بها على هؤلاء الطغام الذين
يتزايد عددهم كلما تزايدوا في إفناء بعضهم البعض كأن هناك
مصانع خفية تخرجهم كمصنع أنحينا الحاج صالح . قال
العزيزي : لقد وعيت حروب الأوجاقات (١) وفتنها وقيام البنكجارية
على التفكجية والمتفرقة على الجراكسة والحمليان على العزب ،
وبطش الفقارية بالقاسمية ونصف سعد ونصف حرام وقيام
الفرقة القازدغلية اليوم وغدر الأمراء ببعضهم البعض وحوادث
التقتيل والتشريد وعزل الولاة والسخرية بالمراسيم السلطانية ولكنه
لا يزال يحز في صدرى أن كل فرقة من هؤلاء كانت تأخذ
فتوى على جواز قتال الأخرى .

(١) الأوجاقات جمع أوجاق ومعناه موقد النار ويطلق على الفرقة من
العسكر . والأوجاقات التركية في مصر لذلك العهد سبعة هي أوجاق المتفرقة
ومعناها أصحاب إقطاعات . وأوجاق الجاوشية ولقطة جاوش تدل على رتبة
بين الأونباشى والملازم وأوجاق كولويان أو جمليان أى المقطوعة . وأوجاق
تفنجيان أى حملة البنادق . وأوجاق الجراكسة وهم المماليك وأوجاق
الانكشارية ومعناه العسكر الجديد . وأوجاق العزب أى رجال البحرية .
ولكل واحدة من هذه الفرق اختصاص يصعب تحديده وليس هنا موضوع
الكلام عليها .

فأجاب الشيخ أحمد الراشدى وهو يتسم : « كلما جاءت
أمة لعنت أختها » ثم إن هذه من أبسط الأمور اليوم ولكن . . .
هذا أخونا الشيخ حسن البخرتى قادم .

ودخل شيخ قصير القامة عبل الجسم ينظر عن عيني
سوداوين يأتلق بريقهما ويعاوهما حاجبان غليظان وتسترسل
على صدره لحية عريضة تمازج فيها البياض بالسواد فهض
الجميع إجلالا ولكنه أقرأهم السلام ولم يصافح أحداً بل سارع
إلى أقرب مكان فى جنب الشريف قاسم وقعد وهو يقول :
— لا عليكم واصلوا ما كنتم فيه .

وكان الشيخ منفعل النفس تدل أسارير وجهه على انقباض

وحصر

فقال الشيخ يوسف : إننا كنا فى حديث معاد نعرض
لهذا الكابوس الجاثم على البلاد ولا نرى منه مخلصاً . . . إنها
حالة مؤلمة . . . الأمراء قد أفحشوا فى الظلم . . .

فقاطعه الشيخ قائلاً : « ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا
ما بأنفسهم . . . » فقال الشريف قاسم : أرى سيدى الشيخ
مشغول البال أرجو الله أن لا يكون شاكياً ضرراً .

فقال الشيخ : بل أحمد الله على نعمه . الحمد لله رب
العالمين . لقد من الله على بولد سميته باسم جدى الأعلى عبد الرحمن .

فقال الجميع : بارك الله لك فيه . يعيش في ظلك وعزك يا مولانا وينبته الله نباتاً حسناً .

قال الشيخ : إنه الولد الثاني الذي يمن الله على به في هذا العام فلقد رزقت عليّاً منذ شهر ولكن مولود اليوم وضعته إحدى السراري وعلى كل حال لا أراني مسروراً . . . ثم وجه حديثه إلى الشريف قائلاً :

لقد رزقني الله إلى اليوم خمسة وثلاثين مولوداً من الذكور والاناث ماتوا جميعاً وهم دون البلوغ . . . فهل لهذا تعليل طبي يا سيد قاسم .

قال السيد : لما كنت أدرس الطب في بیمارستان المنصوري عالجت هذه المسألة طويلاً ولم أجدها تعليلًا ولعل للوراثة شأنًا في هذا الأمر الغريب .

قال الشيخ حسن : إن أجدادي الأعلين عمروا جميعاً ولم يمت شاباً إلا والذي إبراهيم رحمه الله ولكنه بلغ رشده وتزوج وأعقب أما هؤلاء الصبية الأبرياء فإنهم يتناثرون كحبات العقد . ولقد والله بلغت روعي التراقي مما أدفن بيدي من الأطفال وأقف على هذه القبور الصغيرة أوارى فيها قطع أحشائي . . .

وكادت العبرة تخنقه فبادره الشيخ محمد العزيزي وكان يكنى « بابن السبت » لأن أمه كانت سرية وقال : إني أبشر

مولانا ببشارة أرجو أن يذكرني بها بالخير فإني أرى أنه قد ولد لي اليوم ابن خالة . . . فابتسم الشيخ حسن على حرج صدره ولكن العزيزى استطرد قائلاً : نعم أبشر نفسى بأنه ولد لي ابن بخالة ما دامت أمه سرية مثل أمى . ألم يولد لأبى من حرائر نسائه ثمانون بنتاً . . . والله يا مولانا الشيخ يوسف ثمانون بنتاً ولدن لأبى رحمه الله حتى كربت روحه تزهق من هذه الذرية المؤنثة . . . ثم اشترى سرية رومية ولدتنى له ولم تلد له غيرى لأجل هذا دعيت « ابن الست » .

فأجاب الشيخ يوسف مبتسماً : كما يقال للأسود يا أبيض ويدعى اللديغ سليماً .

قال العزيزى : كما تريد . . . ولكن اليوم . . . يكون عبد الرحمن الجبرتي ابن ابن خالك . . . ابن خالتى . . .

فضحك الشيخ يوسف والشيخ الراشدى وسأل السيد قاسم : وأين البشارة يا شيخ محمد ؟

قال العزيزى : البشارة أنه سيعيش هذا الطفل السعيد ببركة دعائى له . . . ثم وقف الشيخ محمد العزيزى رافعاً يديه إلى السماء يقول :

اللهم احفظ ابن خالتى عبد الرحمن من كل سوء وأطل

عمره وثبته في طاعتك واكتب له السعادة في الدارين
يا أرحم الراحمين .
فقال الجميع آمين .

والتفت إليه الراشدى وكان شافعيًا وسأله : إن أباك يا شيخ
محمد كان شافعيًا فما بالك نشأت مالكيًا .

أجابه : يا سيدى الشيخ إن والدى أقرأنى القرآن على مولانا
الشيخ على العدوى والعدويون مالكيون كما تعلم فهذا سبب
التصاقى بالمالكية على أنى أردت الانتقال إلى الشافعية ولكنى
رأيت فى الإمام الإمام الشافعى رضى الله عنه فنهانى عن ذلك
فهل أخالف صاحب المذهب لأرضى أتباعه .

فابتسم الراشدى وقال : كلا . . . ثم قام منصرفاً وقام معه
السيد قاسم قائلًا : لست منصرفاً بل أود أن أحقق بعض المسائل
فى خزانة الكتب . فقال الشيخ حسن : على رسلك حتى يحضر
الطعام .

وانصرف الراشدى ودخل السيد قاسم حجرة الكتب وأخذ
يتفحص بعض الآلات والأدوات والكرات وتبعه الشيخ
العزيزى يسأله عن الكتب التى يريد أن يقدمها له . وكأنما
كان حديثه ذاك قد حل عقداً من لسانه فاندفع يقول للسيد
قاسم : إن مولانا حسن الجبترى عالم لا يضاهيه فى علمه أحد .

سلى عنه فإنى بعاشته فى منزله ونشرت إخلاصه لله وللدين
وللعلم هذا رجل ينام أول الليل ويقوم آخره يصلى ما تيسر من
النوافل والوتر وإذا لم يشتغل بالذكر انصرف إلى مسألة فقهية أو
رياضية أو فلكية . لقد طار صيته فى الآفاق ورأسله ماوك
الدنيا حتى مولانا السلطان أهدى إليه نسخاً من خزائنه : انظر
هذه الكتب المذهبة العجيبة : هذا كتاب القهستانى الكبير .
وهذا فتاوى الأنقروى . . . وهذا نور العين فى إصلاح جامع
الفصولين . إنها كتب سلطانية بالتركية والشيخ يتقن هذه
اللغة وهو يخاطب بها الأمراء حتى كأنه منهم وقد قصده منذ
سنوات جماعة من الإفرنج أخذوا عنه علم الهندسة وذهبوا إلى
بلادهم ونشروا بها ذلك العلم وأخرجوه من القوة إلى الفعل .
وكان السيد قاسم يصغى إلى الشيخ العزيز مبتسماً وقد
تناول كتاباً صغيراً ملقى على الخوان عنوانه « وسيلة الطلاب
لاستخراج الأعمال بالحساب » للعلامة الماردى فنظر العزيز
إلى الكتاب وقال : رأيت هذا الكتاب ؟ . . . إنه أنقذ سمعة
البلاد من الجهل .

فنظر إليه السيد قاسم متعجباً . فقال الشيخ محمد : ألم يحدثك
عنه مولانا الشيخ عبدالله الشبراوى وهو عديلك فى نظم
الشعر وإن كان شيخ الأزهر .

قال السيد قاسم : وما معنى هذا الكلام .
 قال الشيخ محمد : لما حضر الوالى أحمد باشا الملقب
 كور وزير باحث الشيخ عبدالله فى العاوم الرياضية فأحجم الشيخ
 فعجب الوالى من جهله وقال له إن المسموع عندنا فى الديار
 الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم فلما جثها وجدتها كما
 قيل تسمع بالمعبدى خير من أن تراه . . . ثم قال له : إن غاية
 تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل واضطرحت المقاصد .

فقال له مولانا الشيخ عبدالله : إن معرفة غير هذه من فروضى
 الكفاية إذا قام بها البعض سقط عن الآخرين . ثم دله على
 أستاذنا الشيخ حسن الجبرتي فلاقى عنده بغيته ، ونال أمنيته .
 وأقرأه أستاذنا هذا الكتاب الذى بيدك الآن وحل له أعوص
 المسائل ، وأعضل المشاكل ، حتى طار به فرحاً وألبسه
 فروة سمور علامة التفخيم والتعظيم ليظهر له إعجابه به
 وما زال يكرمه كل الإكرام حتى رحل عن هذه البلاد فراح
 ينشر فضله فى دار السلطنة . . . وظل مولانا الشيخ عبدالله
 الشبراوى يقول بعد ذلك لأستاذنا الشيخ حسن : سترك الله كما
 سترتنا عند هذا الباشا فإنه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً . . .
 فضحك السيد قاسم وقال : ألهذا تقول لى أنه عديلى . . .
 فوجم الشيخ العزيزى وقال : معاذ الله ! معاذ الله !

كانت الدنيا مقبلة إقبالا عظيماً على الشيخ حسن الجبرتي بما آل إليه من وقف جدة والده زينب الجوينية وبما وقفته عليه جدته لأبيه الحاجة مريم بنت الشيخ محمد المنزلي الأنصاري من عقارات أهمها وكالة الصنادقية والخوانيت المجاورة لها وأملاك أخرى بالغورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الأقبغاوية . وكانت هذه الجدة كفله صغيراً بعد وفاة أبيه سنة ١١١٠ وعمره شهر واحد وأقيم وصياً عليه الشيخ محمد النشرفي المالكي شيخ الأزهر لذلك العهد : ولا شك في أن هذه الجدة كانت شابة حينئذ فتزوجها الأمير على أغاباش متفرقة المعروف بالطوري نسبة إلى قلعة الطور التي كان له حكمها مضافاً إليها قلعتا السويس والمويلح وفطن الشيخ حسن بثاقب بصيرته حين بلغ مبلغ الرجال إلى أن في هذا الزواج تبعيذاً بينه وبين جدته الثرية فتزوج بنت هذا الأمير ليزيد علاقته توثيقاً به .

ونرى الشيخ تزوج من جهة أخرى ابنة رمضان جلبي المعروف بالحشاب . وكانت أسرة هذه الزوج تملك عقارات عديدة في بولاق منها وكالة الكتان وربيع وخوانيت تجاه جامع

الزردكاش وبيت كبير بساحل النيل ومنزل تجاه جامع مرزه الشوريحي ولا بد أن حصة زوجه هذه كانت ذات بال حتى شاركها في قسم كبير من هذه العقارات .

ولم يقتصر الشيخ حسن على استغلال أوقافه وممتلكات زوجته بل تاجر وضارب وشارك وقايض وباع واشترى ومارس أمر الدنيا إلى جانب ممارسته أمور الدين . ولما توفي الأمير على الطوري آل إلى الشيخ حكم القلاع المشار إليها ولا نعرف كيف كان ذلك وهو لم يكن من الأمراء . إلا أنه قتل له هناك خادم يدعى سليمان فاغتم لمقتله وتخلي عنها واقتصر على الاشتغال بما يشتغل به العلماء .

ومن كانت هذه غلاته ومرافقه كانت عيشة البذخ ميسرة له . وبعد فالشيخ لا يعول أزواجه وولده وحاشيته بل يعول كثيراً من الأشياخ الناشئين والمهاجرين فيسرف في الإنفاق عليهم إذا جاز أن يدعى الانفاق عليهم إسرافاً .

من ذلك أن الشيخ إسماعيل النفراوى لما اعتبر أن ابنه الشيخ محمد إسماعيل قد بلغ المنتهى من العلوم الفقهية أحضره إلى الشيخ حسن سنة ١١٧١ وسنه إذ ذاك عشرون سنة ورجا منه أن يلقنه العلوم الحكيمية والرياضية التي ابتدع الشيخ إلقاءها في الأزهر وفي منزله فألحقه الشيخ بمنزله وأفرد له خزانة لكتبه

وعروضه واشترى له حماراً ورتب له كسوة ومصرفاً .
 وكان الشيخ مرة على بغلته عائداً إلى بيته فاذا الأمير أحمد
 البارودي ماراً بموكبه فتحاير الشيخ عن الطريق ولكن سرعان
 ما نزل الأمير عن فرسه وخف إلى الشيخ يقبل يده فاستحيا
 الشيخ منه وأراد أن يقابل عطفه هذا بمأثرة يقدمها إليه فالتمس
 منه أن يقيده به أحد الطلبة ليقرئه الفقه فقيده به الشيخ
 عبد الرحمن العريشي شيخ رواق الشوام وشيخ الأزهر فيما بعد .
 وهذان المثالان بعض من كل . فهناك طائفة من الأشياخ
 لا يكادون يرحلون منزل الشيخ حسن . فمن المشايخ محمود الكردي
 وعبد الرحمن البشبيشي ومحمد الفرماوي والعريزي والهلباري ومن
 غير المشايخ محمود النيشي والتونسي وغيرهما ومن المهاجرين
 ابن السويدي البغدادي وإبراهيم الصبيحاني وعدد وفير من
 المريدين بعضهم متقيد بخزانة الكتب وبعضهم بالنسخ وبعضهم
 بالتجليد وإلى جانب هؤلاء جميعاً يفد لزيارة الشيخ في كل
 أسبوع عدد جم من الأمراء والأعيان والتجار إما للتبرك وإما
 للاستئناس وبيت الشيخ مفتوحة رحابه للجميع مبدول خيره
 لهم على السواء .

وكان الشيخ حسن إلى جانب الواجب الخاص يقدر الواجب
 العام فإنه لما اختلت الموازين والقبابين بالقاهرة سنة ١١٧٢ أنبرى

لتصحيحها فاستدعى السباكين والحدادين وحرر لهم المثاقيل
والصننج وأرشدتهم إلى ضبطها ووضع في ذلك كتاباً سماه
« العقد الثمين فيما يتعلق بالموازين » واستحضر على خليل شيخ
القبان والشيخ حسن ربيع البولاق وأملاه عليهما وأنفق على هذا
الواجب العام من حر ماله مبالغ طائلة ابتغاء وجه الله وحده .
فلا عجب إذا رأينا الشيخ يبيع فروة السمور التي خلعها
عليه الوالي أحمد باشا كور بثمانمائة دينار كان في حاجة
إليها بلا ريب .

* * *

في مثل هذه البيئة العلمية والثقافية نشأ عبد الرحمن الجبرتي
وأى شيخ صادق في المنزل كان يرى لزماً عليه مذاكرته
في شيء من المعرفة فهذا البشيشي يلقنه حروف الهجاء وآيات
من القرآن وهذا الشيخ عبد ربه ابن الست يضمه إليه ويقول
للشيشي : لا ترهق ابن خالتي بالحفظ . أما الشيخ محمد
موسى الجناجى فهو أظرف الأشياخ في نظر الطفل بما يهمل
من بزته وهندامه . فثيابه طويلة أو قصيرة . خشنة أو ناعمة .
وكان عبد الرحمن يركض إليه حين يراه عائداً من الفرن وعلى
رأسه طبق الخبز ليأخذ منه رغيفاً ساخناً : أو هو يرقب عودته
من بولاق حتى يراه راكباً على حماره فوق خزم البرسيم التي

ذهب ليشتريها لبغلة الشيخ الكبير فيسارع إليه حتى إذا حط
البرسيم عن ظهر الحمار رفع عليه عبد الرحمن ليقوده إلى مربطه
ولا يلاقى الجناحي بعد ذلك ، كبير عناء في تلقين الطفل
شيئاً من القرآن وبهذه الوسيلة أمكنه أن يحفظ من سورة
الشورى إلى سورة مريم .

ولا ندرى إذا كان عبد الرحمن يلزم في البيت أخاه علياً
ولا إذا عاشا معاً في بيت واحد وهو لم يذكر لنا شيئاً عن ذلك
ولعل كلا منهما كان محضوناً في حجر أمه ناشئاً نشأة مستقلة
عن أخيه ولعل علياً ابن إحدى الحرائر وعبد الرحمن ابن سرية
فلا بد من التفرقة في معاملة كل منهما حتماً .

وقرأ الشيخ حسن في وجه ابنه عبد الرحمن مخايل النجابة فلم
يجد بأساً من اختلاف الطفل إلى أحد الكتاتيب المنبثة في حى
الأزهر حتى إذا يقع صار يختلف إلى مدرسة السنانية الواقعة
في رأس خطة الصنادقية وكلما انصرف من المدرسة إلى المنزل
وجب عليه أن يعيد على أبيه أو على أحد الأشياخ ما تعلمه
في يومه ذاك .

ورزق الشيخ حسن الجبرتي سنة ١١٧٤ ابنين عرفنا اسم
أحدهما حسنين فقط وقد هنأه بولادتهما تلميذه الشيخ محمد

الصبيان فقتوت نفسه وضمن بأولاده هؤلاء اتصال الذرية على الزمان .

وفي هذه السنة كان عبد الرحمن في السابعة من عمره يقظ الذهن يستوعب كل صغيرة وكبيرة تجري حوله بمقدار ما يمكن أن يستوعبها حدث غر مثله . وكان ميدان طوه يمتد من خان الصاغة إلى بيت القاضي فالمشهد الحسيني فباب زويلة وما يتفرع من الغورية من خطط وحارات وعطفات كالحمزاوي والقشاشين والكعكيين ونحشقدم وحارة الروم ولا شك في أنه كان يصحب أباه إلى المساجد التي تؤدي فيها فريضة الصلاة أيام الجمعات والأعياد ولا شك أنه أيضاً كان يذهب مع أمه أو أحد أقاربه إلى مصر القديمة أو إلى بولاق للتنزه والترريض حيث كانت لهم رياض وغياض .

ويغلب على الظن أن الشيخ حسن كان يسكن أيام القيظ في بولاق وقد تطول أيام القيظ في القاهرة فيظل في بولاق إشفاقاً على أولاده من غبار الحى الأزهرى وتحاشر الناس فيه لأن منزله في الإيزارية على ساحل النيل يرتفع عشرين درجة عن مستوى الماء فلا غبار ولا تحاشر هناك بل النسيمات العذاب تهب على النيل وتلطف من حرارة الجو .

وصحب عبد الرحمن أباه في ليلة المولد النبوى الشريف لسنة

١١٧٧ إلى منزل السادة الوفائية فتكرم الشيخ أبو الإمداد إسماعيل سبط بنى الوفا فكنى عبد الرحمن أبا العزم ولعله في نفس تلك الليلة كنى أخاه علياً أبا الإتيقان ودون كاتب الكنى سيد أبو مفلح العجمي الشيشيني هاتين الكنيتين في السجل الخاص. وبلغ عبد الرحمن إذ ذاك سن التمييز وأخذت تنجلي الدنيا أمام عينيه لأنه ذكر في تاريخه أنه أدرك سن التمييز في العاشرة يريد بذلك انتباه العقل إلى ما يحيط به وانطباع الصور في الخيلة وتنسيقها في الذاكرة ومن المحال أن يقصد نضوج الفكر والإحاطة بالمدركات والصور. ومهما يكن من الأمر فقد اشتهر عنه أنه حفظ القرآن الكريم وهو في الحادية عشرة.

ولم يتم فرح الشيخ بأولاده فهذا حسنين وصنوه يموتان وعلى مريض وعادت الشيخ البلابل والأشجان وأصبح قلقاً مضطرباً موزع النفس بين علي وعبد الرحمن وبينما هو في مثل هذه الوسواس إذا الشيخ عبد الرحمن العريشي يستحثه لإلحاق عبد الرحمن برواق الشوام لتلقيه مذهب الحنفية. فاتكل الشيخ حسن على الله وأسلم ولده إلى العريشي يجاور في رواقه ولم ينتقل في تلك السنة ولا في السنة التالية إلى الصنادقية بل بقى في بولاق وحينما ظن علياً قد عوفي مما به جرى عليه القدر سنة ١١٧٩ وهو في الثانية عشرة.

فأسودت الدنيا في وجه الشيخ وحزن حزناً عظيماً وانحرف مزاجه وتوالت عليه النوازل وأوجاع المفاصل . فترك الذهاب إلى بولاق وغيرها ونقل العيال إلى الصنادقية ولازم منزله وصار يشغل نفسه بإملاء الدروس وتحرير الفتاوى .

وفي سنة ١١٨٢ رأى أن يسارع إلى تزويج عبد الرحمن وهو إذ ذاك في الرابعة عشرة ولم يذكر لنا المؤرخ شيئاً عن زوجته هذه ولا عن أصلها وأهلها . ولا شك أن مسارعة أبيه إلى تزويجه دليل على خوفه الشديد من انقراض ذريته . وقد أرخ الشيخ عبد الله الإدكاوي هذا الزواج بأبيات بعث بها إلى الشيخ حسن وبيت التاريخ قوله

والحال إذا أرخته شمس البها زفت لبدرك

(١١٨٢)

ولا شك أن عبد الرحمن قطع المجاورة في الأزهر وسكن في الصنادقية لكنه لم ينقطع عن الأزهر فهو يحضر الدروس في الحلقات ويحضر دروس والده في المنزل فهناك يأخذ الفقه واللغة وهنا يأخذ العلوم الرياضية والحكمة والفلكية .

وكان أبوه يحس أن ابنه هذا إذا مد الله في عمره سوف يكون له شأن في الدنيا فكان يذاكره الدروس منفردين في غير ساعات الدروس وكان يحدثه عن آبائه وأجداده وأنهم ينتسبون

إلى مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضى الله عنه وجدهم الأعلى .
 زين الدين عبد الرحمن الجبerty نرح من بلاد الجبerty بالحبشة
 إلى الحجاز وجاور فى مكة مدة ثم جاز ببحر القلزم إلى مصر
 ودخل الجامع الأزهر واجتهد حتى تولى مشيخة رواق الجبertyية
 وأعقب ولده شمس الدين محمداً الذى تولى أيضاً مشيخة
 الرواق وكانت له كرامات مذكورة وقد خلف ابنه الشيخ
 نور الدين على الذى أعقب ولدين هما حسن وعبد الرحمن
 ومات عبد الرحمن فى حياة أخيه ولم يعقب وكان الشيخ حسن
 مفتى المسلمين وأعقب برهان الدين إبراهيم جد عبد الرحمن .

وأشهر كرامات سلفهما شمس الدين محمد أنه فى إحدى
 ليالى الشتاء بينما كان مكباً على القراءة فى الأزهر انطفأ
 السراج فجأة فأيقظ النقيب ليسرج له لكن النقيب تشاقل
 فى القيام وتباطأ فى المشى ذهاباً وإياباً وفى أوبته والسراج بينده
 دهش إذ رأى الشيخ يواصل القراءة ممسكاً بيده اليسرى الكتاب
 رافعاً سبابته اليمنى مضيئة له كالشمعة المشعلة .

وكان الشيخ حسن يرى لذة فى إصغاء ابنه إلى أحاديثه
 ومحاولته تفهم ما يسمعه واستيغابه فصار يقص عليه أحداث
 العصر وأخبار الولاة والأمراء والأشياخ الذين عرفهم وعرفوه
 من محمد بك جركس وإسماعيل بك إيواظ الملقب قشطة بك

وذى الفقار قانصوه إلى عثمان كتخدا ومحمد بك قطامش إلى
ضديقه الحميم عثمان بك ذى الفقار الذى خرج من مصر
سنة ١١٥٦ واستشار إبراهيم كتخدا بك ورضوان بك الجلفى
بالحكم بعده ثم ظهور على بك الكبير فى أيامهما .

وكان عبد الرحمن يستريد والده من أمثال هذه الأحاديث
وتضحكه ألقاب بعض الأمراء كإسماعيل بك بارم ذيله .
ويوسف بك القرد وأبو مناخير فضه . وتطوف برأسه أسماء
هؤلاء الأمراء الأعاجم الذين يحكمون البلاد فى حين أن السادة
العلماء لا يمتد سلطانهم إلى أبعد من مريدتهم وحاشيتهم فيشرح
الشيخ حسن لابنه مهمة العلماء وأنهم ورثة الأنبياء وأحباب الله
وآحاد الأكوان وأفراد الزمان . يلهم « خلاصة خاصة الله
فى خلقه » فيستفز هذا الكلام قلب الغلام ويصغى بكل
جوارحه إلى أبيه الذى يفيض فى الحديث عن فضائلهم وكراماتهم
ونخصائصهم مبتدئاً من شيوخ الأزهر كالنشرقى ومحمد شنن
والفيومى من المالكية ثم انتقال مشيخة الأزهر إلى الشافعية
بالشيخ عبد الله الشبراوى . وهناك إلى جانب هؤلاء أشياخ أجلاء
كتبوا وشرحوا وعلقوا وأفادوا وهم طبقات ، فالعليا أمثال الشرنبلالى
والزرقانى والملوى والبابلى والشربينى ، والأولى أمثاله هو وأضرابه
كالنفرأوى والصعيدى والدردير والعدوى والحفنى والدمهورى

ومن الأشياخ شعراء يشار إليهم بالبنان كالشرقاوى واللقيمي
والأنبوطى والسيوطى والإدكاوى وكلهم رفيع المقام مسموع
الكلمة لدى الأمراء يقصده الأعيان والتجار وكبار الناس
لا لحاهه ولا لماله بل لعلمه وعقله فيحصن به دينه ويتبرك
منه فى دنياه وهى نعم خصهم الله بها تميزاً لهم وإعلاء لكلمة
الحق التى بها ينطقون .

وكان الشيخ حسن رجلاً واسع التفكير بعيد النظر لا يقصر
حديثه على الأفراد بل يتعداهم إلى الأحداث ويستنبط الصلات
بينها ويستنتج لابنه كل سبب فيظهر له مثلاً كيف كانت
أيام الرخاء والرخص ووفرة الأغذية والأكسية تابعة لعدل الحاكم
وإنصافه وتسويته بين الرعية وكيف أن الظلم مرتعه ونحيم فإذا
وقع شره المستطير على المظلوم كانت مغبته هلاك الظالم ونجاة
المظلوم . فيقتضيه هذا الكلام عرض الأسعار والخاصات
وذكر تراخى الأسواق أو استمساكها وغلاء المعيشة وما إلى ذلك .
أما مصر وخبراتها ونيلها وصعيدها فكان الحديث عنها طويلاً
طويلاً . وأما عادات أهلها فكفى الأصيلين منهم فخراً برهم
بالفقراء وتعودهم مد الأسطة لهم . بل كفاهم فخراً أن أكثر
خزائن الكتب فى بيوت أغنيائهم مبدولة لطلبة العلم يتداولونها
كما يشاؤون ويستعرون منها ما يشاؤون .

وكان يحدثه عن آل الشرايبي هؤلاء الكرام الأتجاد الذين عاش في كنفهم مئات من الأسر الفقيرة والذين كانوا لا يقبلون من فلاحهم زيادة على المال المقرر بل هم يقرضونهم ثمن البذور ويساعدونهم على زراعتهم ويحسبون لهم هداياهم من أصل المال المطلوب منهم في حين كان الممالك يتزودون دم فلاحهم ويعسفون بهم عسفاً شديداً ويستنزفون خلاصة ما يغنون من الأرضين فلا يتركون لهم قوتهم وقوت عيالهم .

ولا شك أن دروس الشيخ حسن في منزله ومذاكراته لابنه عبد الرحمن وأحاديثه عن الماضي والحاضر كانت تجلب السرور إلى قلبه وتدخل الصفاء على نفسه وشعر رويداً رويداً أن الجو حوله قد راق والدنيا هدأت نأمتها واستقرت . إلا أن هذا الصفاء لم يطل إذ وقعت في منزله مأساة عجيبة جددت له الأسى وبعثت الغم والحزن إلى فؤاده ذلك أن زوجه بنت رمضان جلبي كانت لما حجت معه سنة ١١٥٦ أعجبت بجارية بيضاء معروضة عليه فاشتريتها من مالها وأحببها كل الحب وأحضرتها إلى مصر وأعتقتها وزوجتها الشيخ دون مبالاة وعاشتا متحابتين إلى سنة ١١٨٢ إذ مرضت السيدة فمرضت الجارية لمرضها وصارت تطلب أن تموت قبلها فماتت فعلا وسيدتها غائبة عن حسها فلما أفاقت نادتها فقبل لها إنها نائمة فقالت بل رأيت في المنام أنها

ماتت فقالوا لها حياتك الباقية ثم غسلوها بين يديها وذهبوا
بجنازتها فرجعت السيدة إلى فراشها وهي تبكي وماتت آخر
النهار فخرجوا بجنازتها في اليوم التالي .

وقد انزعج الشيخ وأهل بيته وصحبه لهذا الحدث الغريب
وبقى الشيخ ملازماً بيته مونس القلب مشلول الإرادة لا يخرج
إلا لأمر ذي بال أو باستدعاء أحد الأمراء .

وكان في هذه الحالة لما أرسل عبد الرحمن العريشى سنة
١١٨٣ إلى إسلامبول بمهمة ناطها به على بك الكبير . وكان
العريشى يلتقى الدر المختار في الأزهر فالتفت الجماعة من
من الشيخ حسن تكملة الكتاب فأكمله لهم في منزله وكان ابنه
عبد الرحمن يحضر على العريشى مع الشيخ الناشئ أحمد الطهطاوى
فتصادق الفتيان وأصبح حسن الجهرتى يرى الطهطاوى كل
يوم في منزله متخلفاً يعيد الدرس مع ابنه عبد الرحمن ويفهمه
ما صعب عليه فهمه فأحبه وصار كلما رأى ابنه وحده يسأله :
أين رفيقك الصعيدى . . . ولعله إكراماً لابنه وارفقة الصعيدى
أملى في هذه السنة بمنزله متن نور الإيضاح بعد إتمام الدر
المختار .

وكان الشيخ قد دفن من الأولاد أربعين ونيفاً ذكوراً
وإناثاً ولم يبق له إلا عبد الرحمن ودخلت سنة ١١٨٨ وقد بلغ

الشيخ السابعة والسبعين وفترت عزيمته ولانت شكيمته وفي
 ١٨ محرم أصيب بالهيفة الصفراوية ولم يلبث إلا اثني عشر
 يوماً حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى غرة صفر من هذه السنة
 ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء بجوار الشمس البابلي والخطيب
 الشريبي رحمهم الله جميعاً فطويت بموته عبقرية لم تعرف المائة
 الثانية عشرة أحفل منها علماً ولا أوسع أفقاً .

ترك الشيخ حسن الجبرتي لابنه عبد الرحمن أموالاً طائلة وخزائن حافلة . وترك له من الصداقات المؤثرة في صدور أقرانه من الأشياخ ومريديه من الطلبة وأصدقائه من الأمراء والكبراء ما هو أغلى من الثابت والمنقول . بل ترك له من العلم الذي عمر به صدره ما هو أبقى له على الدهر وأنفس على العمر . وقد صرف عبد الرحمن همه باديء ذي بدء إلى لم شعثه ، وانتظام أمره . لكنه متشائم من بيت الصناديق لضيق أسافله واتساع أعاليه . وكانت صورة القاضي المولى حفيد أفندي لا تزال ماثلة في ذهنه وقد زار والده في يوم قاتظ وهو رجل طاعن في السن فما صدر إلى أعلى الدرج حتى استلقى على ظهره من الإعياء . ثم إن هذا المنزل خرجت منه جنازات كثيرة فهو بهجره حيناً حتى يرى رأيه فيه .

وانتقل عبد الرحمن إلى بولاق ولم يمنعه هذا الانتقال من المثابرة على الحضور في الأزهر والاختلاف إلى الحلقات ، ذلك إلى جانب ضبط العقارات والأموال التي خلفها أبوه في القاهرة وبولاق ومصر القديمة . وقد خلف أبوه أيضاً أملاكاً أخرى في

جهات أخرى لعلها تجب زيارتها للإشراف عليها بل يجب على عبد الرحمن أن يطوف بلاد مصر ليعرف مواقعها ويتعرف على علمائها وكبرائها ويزور مساجدها ومشاهدها ويرى مرافقها ومصانعها ويشهد الفلاح في قريته ، والزارع في مزرعته . فما انتهت السنة التي توفي فيها والده حتى قام برحلة إلى الوجه البحري على التخصيص .

وكان النيل أهم سبل المواصلات في تلك الأيام لاضطراب الأمن واستفحال أمر الأعراب من قطاع الطرق فلا يأمن المسافر في البر إذا لم يكن مخفوراً أن يعتدى عليه ويسلب متاعه . ولكن لا بد من سلوك طريق البر للتنقل بين القرى التي لا تقع على شاطئ النيل . ولا شك أن الجبتي برح القاهرة في الأيام الأولى من سنة ١١٨٩ لأننا نشهده حاضراً المولد الأحمدى بطنطا وهو يبتدىء في اليوم الثامن من المحرم ولا شك أنه ركب النيل من بولاق إلى كفر الزيات والمسافة لا تعدو سبعين ميلاً يقطعها المركب في ثلاثة أو أربعة أيام إذا أسعفته الرياح وقد أسعفت الرياح المركب الذي سافر فيه لأن تلك السنة الهجرية بدأت في أواخر شتاء سنة ١٧٧٥ م . ومن كفر الزيات سلك الجبتي طريق البر إلى طنطا حيث أعجب بالمسجد الجامع الذي بناه على بك الكبير حول مقام سيدى أحمد البدوى .

رضى الله عنه وراقتة فيخامة البناء والثقة والمكاتب والميضأة الكبيرة
والمنارقان العظيمتان والسبيل والتميسارية النافذة من الجهتين
وما بها من حوانيت التجار وتعرف في طنطا بالشيخ أحمد
السماليجي الشافعي . وأخص ما يذكر عن هذا الشيخ أنه
تزوج امرأة بارعة الحسن من بلدة الفرعونية ولدت له ابناً
أسماه أحمد « كأنما أفرغ في قالب الجمال . وأودع بعينه
السحر الحلال » . وقد مال إليه الجبرتي إعجاباً به فقال : إنه
« حضر إلى ، وسلم على ، وآسنى بحسن ألفاظه . وحذبنى
بسحر ألاحظه » ولا بد أن هذا الفتى كان يقدر ما وهب من
جمال حتى طلب من الجبرتي تميمة تقيه العين إلا أن الجبرتي
بعد أن غادر طنطا نسيه ولم يرسل إليه التميمة ثم حضر السماليجي
بعد ذلك إلى القاهرة مراراً وكان يزور الجبرتي بمنزله .

ولا بد أن الجبرتي زار أبيار وهي بلدة قريبة من كفر الزيات
ذكر المؤرخون أنه كان لأسرته فيها أرضون ومزارع ثم سلك
طريق النيل إلى فوه حيث صلى في مسجد ابن نصر الله وقرأ
على جدار هذا المسجد بيتين من الشعر بخط الشيخ عبد الله
الإدكاوي تاريخهما سنة ١١٤٥ لم يذكرهما ثم حمله النيل إلى
رشيد حيث زار الشيخ أحمد على الحضري وأطلع على مؤلفين
لوالده هما شرح لقطة العجلان وحاشية على شرح الأربعين

النووية للشبشيرى وشهد بأن المؤلف أجاد فيهما كل الاجادة
ثم سافر برّاً من رشيد إلى إدكو حيث تفقد أوقاف الجبرية
وهى مسجد عظيم على البحيرة محبوسة عليه عدة أماكن وقيعان
وأنوال حياكة وبساتين نخيل كثيرة كان أبوه ناظراً عليها
ثم انتقلت نظارتها إليه بعد وفاة أبيه . ولا بد أن يكون استكمل
هذه الرحلة بزيارة أبو قير والإسكندرية حيث اجتمع بالشيخ
المسيرى المالكى عالم الإسكندرية وشيخها الأكبر لذلك
العهد .

ورأينا الجبرتي في هذه السنة عينها يرحل إلى دمياط ولا نعرف
شيئاً عن هذه الرحلة فلعله عاد في النيل من رشيد ثم انتقل
إلى فرع دمياط من جهة قرية منه . ومر بالمنصورة حيث زار
جامعها الكبير وودخل إلى الزاوية التى بناها فى مؤخر الجامع
الشيخ الموائى الكبير ودفن فيها وهى التى اتخذها ابن أخيه
الشيخ عبدالله الموائى مقاماً له يحى فيها الليالى بالذكر والتلاوة
وكان هذا الشيخ لا يقوم لأحد ولا يدخل دار أحد وهو
يجلس فى الزاوية على فراش عال بجانب ضريح عمه وقد فرح
بمقدم الجبرتي وقدم له « طبقاً فيه قراقيش وكعك وشريك
ونخبز يابس ولبن وبوسطه دقه وجبن » ثم سقاه « قهوة فى
فنجان كبير » .

وعلى ذكر أسفار الجبرتي نقول إنه لم يذكر عن نفسه أنه حج إلى البيت الحرام إلا أن حجه ثابت بدليل أنه لما ترجم للشيخ حسن العجمي المالكي صاحب الفنون ذكر أنه « ولد سنة ١٠٤٩ كما وجدته بخط والده بمكة » وليس في تاريخه ما يزيد على هذا للدلالة على حجه صريحاً وأعله سافر إلى الحجاز بصحبة الأمير رضوان كنتخدا إبراهيم بك الكبير لأنه في ترجمة هذا الأمير قال عنه : « لقد بلوته سفراً وحضراً يافعاً وكهلاً فلم أر ما يشينه في دينه » ولم يقل عن غيره قط أنه بلاه سفراً وحضراً وقد سمي الجبرتي رضوان هذا أميراً من باب التجوز إذ قال عنه فيما بعد إنهم عرضوا عليه الإمارة فأبى . فهو لم يكن أيضاً أميراً للحج حتى نعرف متى خرج إلى الحجاز وليس هذا عسيراً بل يسهل استقراؤه من أخبار شهر شوال من كل سنة لأن الحمل يسافر عادة بين ١٧ و ٢٠ من هذا الشهر . ولا شك أن الجبرتي زار الصعيد وجول فيه لأنه لا يذكر بلداً إلا حدد موقعه تحديداً صحيحاً يدل على معرفة تامة بجغرافية البلاد .

وعاد الجبرتي إلى القاهرة وعاد سيرته الأولى من الاختلاف إلى الأزهر وحضور حلقات التدريس وقد جاز العشرين من عمره واستكمل نهيأته شاباً وسيم الصبورة ، جمعد الشعر ، أسود

العنين ، أسمر الوجه ، سبط القامة ، عذب الابتسامة ، حلو الحديث والمفاكهة ، متأدياً في السؤال والمبادهة ، مستملياً في المجاذبة ، رحيماً في المغالبة ، مقتصداً في المجاوبة ، كثير الاستبصار والتفكير ، طويل التأمل والتفرس ، لا ينحوض في لغو ولا يعرض عن ملحة ، نافذ البصر والبصيرة ، طيب السيرة والسيريرة . يحبه أصدقائه . من الأشياخ وغيرهم لحسن صفاته ، وكرم خلاله ، ويحفظ الكبار منهم عهد والده . وكان أكثرهم زيارة له الجناحي والصبيان والطائي والكردي ومحمد الأمير ورفيقه الصعدي أحمد الطهطاوي وبخاصة شيخه المحبوب عبد ربه العزيزي المعروف بابن الست الذي ما بقي يدعوه بابن خالتي وفي سنة ١١٩٠ أجازته بمسودعائه ومروياته وألقى عليه دائرة الشاذلي وأجازته بوضعها ورسمها ونقط مركزها كل ذلك في مجلس واحد بمنزله ببولاق على شاطئ النيل .

وأجازته أيضاً أكثر الأشياخ في شتى علوم الفقه واللغة وأكبر هو على خزانة والده يستتم علوم الفلك والحساب والهندسة وغيرها وما عثم أن صار يعقد حلقات التدريس مثل أشياخه فأصبح دارساً ومدرساً وهو منتهى ما يصبو إليه شيخ فاضل في ذلك العصر .

وكانت هذه الحلقات تنعقد في الأزهر على الخصوص وفي

أشهر مساجد القاهرة وبعض بيوت المشايخ على العموم .

* * *

في ذلك العهد كان قد استقر بالقاهرة عالم ولا كالعلماء
وشيخ ولا كالشيوخ هو السيد أبو الفيض محمد مرتضى
الزبيدي نرح من اليمن وهبط مصر سنة ١١٦٧ وسكن
بخان الصاغة ثم راح يحضر دروس شيوخ وقته كالشهابين
الملوي والجوهري والشمس الحفنى وغيرهم كالبليدي والصعيدى
والمداينى وحسن الجبرتي وأخذ عنهم جميعاً وأجازوه وسافر ثلاث
مرات إلى الصعيد ووضع رسالة في رحلاته هذه ثم تزوج
واتخذ سكناً آخر بعطفة الغسال وانصرف إلى التأليف والتدريس
وكان التأليف في تلك الأيام لا يعدو حاشية على متن أو
تعليقاً على حاشية تدور موضوعاتها على بعض المسائل الفقهية
المتعارفة . فشد السيد مرتضى عن أهل زمانه ووضع معجمه
الشهير المعروف بتاج العروس وسلخ في وضعه سنين ولم يشأ
أن يخرج للناس كما تخرج التوايف العادية بل أدب يوم
إخراجة مآدبة عظيمة في غيط المعدية بالقرب من الأربكية
دعا إليها المشايخ والطلاب وأبرز لهم تلك العروس محلاة
بتاجها . وطلب منهم أن يذكروا محاسنها ومباهجها . فهافتوا
عليها جميعاً يقرظونها نظماً ونثراً . فكانت هذه الدعوة مديعة

للكتاب حتى أن محمدا أبا الذهب لما فرغ من بناء مسجده المعروف باسمه أمام الأزهر وأضاف إليه خزانة كتب كبيرة أفهموه أنها لا تستكمل نفاستها إلا إذا ازدانت بهذا المعجم فاشتراه بمائة ألف درهم .

هذا السيد كان قبلة الجبرتي ومطمح نظره ومثله الأعلى يلزمه أينما سار ويحضر عليه دروسه حيثما انتقل فمن خان الصاغة إلى سويقة اللالا إلى مسجد الحنفي بل هو يدعو إلى بيته ويصحبه إلى بيوت الناس حيث يدعى الشيخ للقراءة .

أما طريقته في التدريس فغير طريقة المدرسين المصريين لأنه كان يسرد أسماء رواة سنده عن ظهر قلبه ويتبع ذلك بأبيات من الشعر فيعجب السامعون من هذا ولم يشأ أن يساير المصريين في شكل عمامته ويقول الجبرتي إنه كان « يعتم مثل أهل مكة عمامة منحرفة بشاش أبيض ولها عذبة مرخية على قفاه ولها حبكة وشراريب حرير طولها قريب من فتر وطرفها الآخر داخل طي العمامة وبعض أطرافه ظاهر » .

ويغلب على الظن أن هذه المفارقات المجتمعة جعلت الناس يميزونه وينضوون إليه فسما قدره وتلمذ عليه بعض الأمراء مثل أيوب بك الدفتردار ومصطفى بك الإسكندراني وتهافت الطلبة عليه من كل حذب وصوب حتى كبار المشايخ أمثال

السجاعي والأكراشي والطائي ممن لهم حلقات مشهورة لا يستنكفون إذا فرغوا من الإلقاء أن يحضروا دروسه .

وكان لعبد الرحمن الجبرتي بين هؤلاء الطلبة كباراً وصغاراً

أصدقاء أوفياء مثل حسين الدرب شمسى وسيدى إبراهيم جلبي

ومحمد سليمان جمليان والشيخ أحمد يوسف الشنواني ومصطفى

صادق اللازحي والسيد علي العلوي سبط آل عمر وإسماعيل

وهبي المعروف بالخشاب والشيخ يوسف الدياربكري الواعظ

وعلي عبدالله درويش الرومي وقد أخذوا جميعاً عن الشيخ فصيح

ثعلب وفقه اللغة للثعالبي وأدب الكاتب لابن قتيبة وسمعوا

كثيراً من شرحه على القاموس وكتبوا عليه الصحيح في مجلدات

وسمعوا في الأمالي والشمائل وما كانوا كلهم شباناً بل منهم من

علت به السن كالشيخ يوسف الدياربكري الذي توفي سنة

١١٩٣ وهو في حدود المائة ومع ذلك كان يحضر على السيد

مرتضى بجامع شيخون إلى سنة ١١٩٠ ولعل أنفذهم عبقرية

كان السيد علي العلوي فإنه من مواليد سنة ١١٧٣ فهو أصغر

من الجبرتي سنّاً ومع حداثة فقد ألف كثيراً ونظم كثيراً وارتقى

في الصوفية مرتبة عالية ثم رأى كما يرى كبار الزهاد أنه لا نفع

من كل هذا فأحرق كتبه كلها إلا كراساً نسيه عند الجبرتي

الذي فقدته وعثر عليه بعد وفاة صديقه سنة ١١٩٩ . والجبرتي

يسميه مع هذا « مرشدنا » .

وكان على عبدالله درويش وهو أيضاً طاعن في السن أثيراً عند الجبرتي مرموقاً بالخير والصلاح يلزمه ملازمة الابن لأبيه ولا شك أنه كان يزوره في بيته ويطلع على أحواله وشؤونه ويعرف أنه ضيق ذات اليد لكنه موفور الكرامة مصون المقام .
أما إسماعيل الخشاب فشاب عرفه الجبرتي يجلس بدكان أبيه سعد النجار بالقرب من باب زويلة وهو نحيف الجسم حاد الذهن كثير الحفظ يروى دواوين من الشعر وله نظم رائق وطالما زارا معاً بيت السادة الوفائية وحضرا الأذكار وسمرا مع كبيرهم لذلك العهد الشيخ شمس الدين أبي الأنوار الذي كان يخص إسماعيل هذا بالتفاتة وعطفه وقد مدحه إسماعيل ببعض القصائد ونال بها حظوة لديه وإن لأمه عليها الجبرتي لوماً عنيفاً .

ويطول نفس الكلام إذا رحنا نتحدث عن كل واحد من مريدي الشيخ مرتضى والحقيقة أنه كان يخصهم جميعاً بابتساماته الحلوة وألفاظه المعسولة فيزيدهم تعلقاً به وإخلاصاً له ويصحب الكثيرين منهم في غدواته وروحاته ، إلى أصدقائه ونزهاته .
كاصطحاب الجبرتي إياه في الذهاب إلى الجمالية للسلام على الشريف الرحالة على عمر القناوى الحسيني لما استقر بالقاهرة

سنة ١١٩٤ وتعريفه به وعقد آصرة الود بينهما حتى صار الشريف يختلف إلى الجبerty في بولاق باستدعاء وبغير استدعاء .

* * *

تلك هى البيئة التى انخرط فيها عبد الرحمن الجبerty بعد وفاة أبيه وقد عاد من رحلته التى ذكرناها وأقام ببولاق وهى لذلك العهد حافلة بمساكن الكثيرين من الأشراف والأعيان تفصلها عن القاهرة أرض فضاء طولها ميل واحد ومع قصر هذه المسافة كان الذهاب إليها والأوبة منها على بغلة أو حمار مشقة وجهداً لذلك ارتأى سنة ١١٩١ أن يهدم دار خطة الصنادقية التى بقى حائقاً عليها ويبنيها من جديد على غير الطراز الذى كانت عليه أيام والده . وتقع هذه الدار إلى يمين السالك فى الخطة من جهة الأزهر على بعد خطوات من مدرسة السنانية قبل خان الجلالة . فرسم لها الجبerty باباً شارعاً على الخطة ينفذ إلى مدخل قصير تقوم إلى يمينه مصطبة من الحجر النحيت ثم ينفذ منه باب يفتح على رحبة مربعة واسعة غرس فيه وسطها حديقة صغيرة تبسم فيها بعض الأزهار وشاد إلى يمين الرحبة أقبية منها إصطبل للدواب وهوى للغلال ومطبخ كبير به فاصل تركم فيه الأحطاب والقحم وحفر بئراً بجانبه وبني بصدر الرحبة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها لسكن الخدم

والعبيد وبعضها للضيوف والاستراحة وواحدة منها بالغة الاتساع للطلبة وانعقاد حلقة التدريس وبجانب باب هذه الحجرة سلم قليل الدرج يصعد إلى الطبقة العليا مفضياً إلى ممشى يدور بالطبقة كلها مشرفاً على الرحبة عقوداً تنتظمها أعمدة من الرخام الملون . ونسق حول الممشى غرماً شتى وجعل العقد الداخل ليواناً يرتفع درجتين ، ويقوم على بئكتين بدلا من واحدة . وتأنق في تنظيمه فزين سماءه وجدراناه بالخشب المحفور والمنجور وأنواع القيشاني الملون وأقام حوله خزانتيين فيهما الآنية الفاخرة ورفع فيه أرائك ثمينة وكسا أرضه بالسجاجيد ناثراً عليها الطراريح الحريرية وسماه « مجلس العقد الداخل » وجعل له بابين ملبسين بالأصداق والنحاس البراق أحدهما يفضى إلى القاعة الكبرى التي يجلس فيها كبار الزائرين . وقد عقد روشناً في سمائها تموج حواه ألوان زاهية صافية ونوع فيها السجاجيد والمقاعد والأرائك وحشد فيها التحف المنشورة في الزوايا والمعلقة على الجدران وأضاءها بأنواع الثريات المغصنة بالبلور والشعاعد الوهاجة وافتن في زخرفتها وفرشها وأما الباب الآخر فيفضى إلى خزانة الكتب وغرف النساء والعيال . وعلق في عقود الدار وأفنيتها المصابيح المبلورة والقناديل الفضية المختلفة الأشكال والأنواع . وكسا جميع الزوايا والأركان والرحاب بصنوف الرياش الغالي والأثاث

التمين. وأنفق عليها مالا جماً حتى استتمها قرة العين وبهجة الخاطر
ولما فرغ من بنائها سنة ١١٩٢ هـ الشَّيْخ مصطفى أحمد
الصاوي بأبيات من الشعر جاء فيها قوله يصف مجلس العقد الداخل :
مكان على التقوى تأسس مجده ومن سور التوفيق والهدى سوره
ومجلس أنس كل ما فيه مشرق ومقعد صدق قد تسامى حوره
بناء يروق العين حسن جماله ورونقه يشفى الصدور صدوره
ومن مجد بانيه تزايد بهجة وقلاد من در المعالي نحوره
وبيت التاريخ قوله :

ودام به سعد السعود مؤرخاً حمى العز بالمولى الجبرتي نوره
(١١٩٢)

وقد طرز الجبرتي هذا الشعر على قطعة من الحرير علقها
بصدر المجلس وضمن بهذه الدار تعدد زيارات شيخه وأستاذه
السيد مرتضى وإخوانه الأشياخ والطلبة وانتظام حلقاته في بيته
إذا لم يتمكن من اللقاء في الأزهر وسار سيرة أبيه فجعل مصيفه
ببولاق ومشتاه بالصنادقية .

ولعله لم يفكر في الزواج ثانية عند فراغه من بناء الدار
ونحن كما قلنا لا نعرف شيئاً عن زوجه الأولى لكننا نعرف أنه بعد
بناء الدار بثلاث سنين تزوج ربيبة صديقه وخليطه على عبد الله
درويش الزوي وقد تحدث عن هذا حيث قال : « فتزوجت

بريسته في أواخر سنة ١١٩٥ برغبة منه وهي أم الولد خليل
فتح الله عليه . ولما حصلت النسابة والمصاهرة حولته بعياله إلى
منزلي لتعب الوقت وتعطيل أسباب المعاش » . ولم يذكر
الجبرتي غير هذا عن أزواجه وأولاده وقد كتب ما كتبه سنة
١٢٢٠ بعد أن مات علي عبدالله سنة ١١٩٩ وقد أثنى ثناء
عاطراً على ورعه وتقواه ويظهر من ترجمته أنه كان رجلاً مثقف
العقل غزير الاطلاع يجيد الخط العربي إجادة فائقة . وقد
أفاد الجبرتي كثيراً من معلوماته عن رجالات العصر الذين ترجم
لهم وتوفي علي درويش عن تسعين سنة ونيفاً . « لم تهن قواه
ولم يسقط له سن ويكسر اللوزة بأسنانه » .

استهل القرن الثالث عشر الهجرى والسيد أبو الفيض محمد مرتضى قد بلغ الذروة من الشهرة والصيت ولم يكن ذلك لخلو مصر من العلماء بل لأن كبارهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى في الربع الأخير من المائة المنصرمة بل مات لفيف من أعاضهم في العقد الأخير منها كأنما كانوا على موعد معها . فتوفى الشيخ أحمد السجاعي والشيخ على الشنويهي سنة ١١٩٠ وتوفى شيخ مشايخ الأزهر أحمد الدمنهورى سنة ١١٩٢ وفى هذه السنة عينها توفى الشيخ مصطفى الطائى والقطب أبو المراحم عبد الرحمن العيدروس الصوفى العظيم وفى سنة ١١٩٣ مات الشيخ عبد الرحمن العريشى والسيد قاسم التونسى الشاعر الطبيب وهما من أخصباء الجبرتي وسنة ١١٩٥ مات شيخه الصوفى صاحب الكرامات الخارقة محمود الكردى وسنة ١١٩٩ فجع الجبرتي • بوالد زوجته على درويش و « بابن خالته » الشيخ محمد عبد ربه العزيزى المعروف بابن الست كما فجع بصديقه الفرماوى والقلعى سنة ١٢٠١ توفى أبو البركات الشيخ أحمد الدردير المشهور كما توفى كثيرون غيرهم وكانوا جميعاً زينة مصر فى ذلك

العصر. ولم يظهر بعد في رأس المائة الجديدة من يخلفهم في علمهم وورعهم وشجاعتهم لأن الموجودين الآن كالسادات والشرقاوي والأمير والمهدي والفيومي لا يزالون في سن الشباب لم تنضج مواهبهم وملكاتهم بعد ولم تصهرهم الحوادث والأيام . لذلك خلا البحر للسيد مرتضى وتجاوز صيته حدود مصر إلى البلاد الإسلامية جمعاء فراسله سلاطينها وهاوئها وأمرائها وصار بيته محط الرحال وقبلة الزوار يؤمه أمراء مصر وأعيانها وكبار الحجاج العابرين بالقاهرة في طريقهم إلى الحجاز .

ولقد بلغ الاستكبار والغرور بالسيد مرتضى حداً جعله يكتب إلى أحمد باشا الجزائر أمير عكا « أنه المهدي المنتظر وسيكون له شأن عظيم » فلا عجب بعد هذا إذا كان لا ينهى بعض زواره من المغاربة عن تقبيل الأرض بين يديه والسجود له ولا عجب أيضاً إذا صار الكثيرون يعتقدون فيه القطبانية العظمى . وفي يوم من أيام جمادى الثانية سنة ١٢٠٣ بعد أن ألقى السيد مرتضى درسه المعتاد في منزله بعطفة الغسال انتحى بالشيخ عبد الرحمن الجبرتي جانباً وقال له : « يا حبيبنا أنت تعلم أن همنا لا يعدو خدمة العلم والعلماء ولما كان المرء قليلاً بنفسه كثيراً بإخوانه ، رأيت أنه ليس أوكد صلة بي منك لتكون لي عوناً على تحقيق أمر ذي بال » .

قال عبد الرحمن : المولى يأمر والعبد يأتمر .

قال السيد : عفواً فإنى منهمك فى الترجمة لأعلام المائة المنصرمة من مصريين وحجازيين ولا أعرف خيراً من ابنى وحنينى عبد الرحمن الجبرتي مسعفاً لى على هذا العمل لنشأته فى بيت علم وصلاح وأدب واتصاله برجالات مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان ولذلك رأيت أن أعتمده لهذا الأمر ويقينى أنى أعطى القوس باريها .

فدهش عبد الرحمن من هذا الطلب الغريب وعجب كيف يلجأ إليه الشيخ مرتضى فى هذا وهو من هو علماً واطلاعاً وقدرة على الكتابة والتأليف . وشعر بكثير من الزهو بمازجه كثير من التهييب لأنه سوف يقرن اسمه باسم أستاذه وسوف يشاطره الفخر والفضل مع أنه لم يسبق له الاشتغال بالكتابة ولم يبحث فى غير الكتب العلمية المتداولة . وعجب لذكاء الشيخ وبعد نظره فى التفكير بالترجمة لأعلام المائة التى انقضت وغاظه أنه لم يفكر هو ولا أحد من أقرانه فى مثل هذا .

وكأنما قرأ الشيخ مرتضى فى وجه عبد الرحمن كل هذه المشاعر وغلبت عليه أستاذيته فأراد أن يملئ درساً على تلميذه فقال له : لا تتعجل الأمر ، ولا تتباطأ فيه ، فى التأنى السلامة ، وفى العجلة الندامة ، وأوصيك بالالتفات إلى الأعلام المشهورين

« واذكر من أحبك في الله وأحبيته ، واستفدت منه شيئاً أو أنشدك شيئاً أو كاتبتك أو كاتبتة أو بلوت منه معروفاً وكرماً »
 وفطن الشيخ مرتضى إلى هذا التضييق في التوصية فقال
 للجبرتي : عليك بالتخير والتحرز ، واعلم أنه ليس كل من نبه
 ذكره ، عظم فضله . وقد ينبت الفضل في الصدور الوضيعة ،
 وتغمر الدنيا أصحابه فيجب التنقيب عنه والتنقير عليه . وذو
 الفضل أقران فيه . لكنهم يتفاوتون في درجاته ومراميه . فأياك
 والإسراف . وعليك القصد . والله المستعان .

وانصرف عبد الرحمن ثم أمسى وأصبح وهذا الأمر شغله
 شاغل يدير وجوهه ويقلب جوانبه . وتزاحمت في رأسه أسماء
 الذين ماتوا ممن سمع عنهم ومن عرفهم وتذكر أحاديث والده
 عن أسلافه وأشياخه وعن الأمراء والكبراء فاختلطت الوجوه
 في مخيلته ، واصطفقت الصور في رأسه ، ونهضت أمام عينيه
 المباني الفخمة التي تحمل أسماء بذاتها والمساجد العظيمة المنسوبة
 إلى العظماء الذين شادوها ابتغاء مرضاة الله ، والحوادث الجسام
 التي تروى عن ولاية الحكم من العادلين والظالمين . فأعوزته
 التواريخ لمعرفة السنين وتنسيق الأحداث وتنظيم الأسماء حتى
 يعرف من أين يبتدىء وإلى أين ينهى ومن يقدم ومن يؤخر .
 وعثر في خزانته على كتاب في التاريخ لمؤلف مجهول اسمه

أحمد جليبي عبد الغنى ثم كتاب الخلاصة للأمينى ثم رسالة
شرح الصدر فى غزوة بدر التى ألفها الشيخ عبدالله الشبراوى
بإشارة من الوالى على باشا الحكيم وفى آخرها نبذة فى تاريخ
ولاية مصر إلى أيام هذا الباشا . ولكن هذه الكتب لم تشف
غليله فهو يريد أن يعرف تاريخ ميلاد كل واحد من الذين
يجب أن يترجم لهم وتاريخ وفاته كما يجب أن يعرف خصائصه
وأخلاقه ومقومات شخصيته ويطلع على كتاباته ويحيط بجلائل
أعماله فالحاكم وحكمه . والعالم وعلمه والأديب وأدبه . وهذا
المطلب شاق عسير بل هو خضم شاسع الأفق ، بعيد الغور .
فطفق يدون الأسماء وكان طبعياً أن يبدأ بالمشايخ وبمن كان
منهم شيخاً للأزهر ثم أشياخ الأروقة وأرباب الحلقات والذين
كان أبوه يسميهم الطبقة العليا ثم الطبقة التى تليها والتى تليها
ممن مات أو لم يمت واشتهر بالعلوم الفقهية والعقلية والنقلية
والشعر والأدب والخطابة . وكانت الترجمة لهؤلاء سهلة لامتقنة
فيها لأن أكثرهم عرف أباه وسمع عنه أو زاره فى بيته . ولكن من
له بالأمراء والعظماء وكبار الأعيان والولاة وهم من أعلام المائة
بلا منازع . وشرع يدون أسماء أمراء الوجاقات والصناجق ومن
بلغ منهم مشيخة البلد ومن شاركه فى الحكم من فقارية وقاسمية
وآل سعد وآل حرام والخلفية والقازدغلية وجماعة الفلاح

والعلوية والمحمدية . فطال الشرح ، واتسع الخرق ، وراح يتخبط
في متاهة لا يعرف لنفسه منها مخرجاً .

* * *

لم يوفق الجبرتي إلى صديق يستعين به على هذا العمل لأنه
فجع منذ سنوات بصفوة أشياخه وإخوانه فقد مات صديقه
العبقري السيد علي العلوي سبط آل عمر سنة ١١٩٩ ومات
الشيخ موسى الجناجي سنة ١٢٠٠ ولا يمكنه أن يتكل إلا على
من يخلص له الود فذكر رفيقه الصعيدي ولكن الشيخ أحمد
منقطع للتدريس بالمدرسة الشيخونية والصرغتمشية وهو يسكن
بعيداً منه بجهة الصليبية أما حسين الدرب شمسي فلا يصلح
لها وحر الجبرتي في أمره ورأى أنه لم يبق له إلا أن يولي وجهه
شطر إسماعيل الحشاب وإن كان إسماعيل مبتلى ببلية كبيرة
فهو منذ بضع سنوات كان له صديق بباب الفتوح يدعى
أحمد العطار توفي عن زوج نصف وطفل صغير فتزوج إسماعيل
الأرملة وتبنى الطفل ورباه وبر به ومنذ سنة أو تزيد كان الطفل
قد يفع وبلغ فاحتفل إسماعيل له وأدب لأصدقائه وأهل زوجته
ولم تمض أشهر ثلاثة حتى مات الغلام فجزع عليه جزعاً
شديداً واختارت أمه دفنه بجامع الكردي بالحسينية واتخذت
مسكناً ملاصقاً لقبره فهي اليوم تقيم به وتطبخ الأطعمة للمقرئين

والزائرين من أهلها ومن غير أهلها وإسماعيل يجلب لها النفقة
بالحل والحرام وقد التحق شاهداً بالحكمة وهو في عسر شديد .

قال له إسماعيل : إن ما ندبك له السيد مرتضى عمل جليل
وليت شعري لا أعرف وجهاً يمكنني أن أفيدك منه .

قال الجبرتي : أنت من عدول المحكمة وفي المحكمة صكوك
وحجج تدون فيها أسماء الناس ومناسبتهم وأعمارهم فهل لك أن
تنسخ لي شيئاً منها وإليك جدول ببعض الأسماء .

فأعجبت الفكرة لإسماعيل وقال له : وهب أن العين الذي
الذي تريد أن تترجم له لم يدخل المحكمة يوماً ولا ثبت له رزق
ولا وقف ولا عقار فمن أين تحصل على معلوماتك .

قال الجبرتي : وأنت أيضاً تختلف إلى الديوان حيث دفاتر
الكتابة والمباشرين ويمكنك أن تحصل لي منها على هذه
المعلومات .

— حسن جداً ولكنك لم تعد الدفاتر .

— إنها تستبهم عليّ المائة الماضية إلى السنة السبعين وأما
ما بعدها فأمور شاهدها وأناس عرفتهم على أنني سوف أطوف
بالقرايات وأقرأ المنقوش على القبور وأحاول جهدي أن أتصل
بأقرباء الذين ماتوا فأطلع على إجازات الأشياخ عند ورثتهم
وأراجع أوراقهم إن كانت لهم أوراق وأسأل المعمرين ماذا

يعرفون عن عايشوهم ولا أرى بعد ذلك مرجعاً أعتمده غير
ما طلبت منك .

* * *

وقد تعجل الجبرتي الترجمة لأشهر أعلام المائة الماضية وبذل
جهداً عنيفاً في تحري الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة
وتقصي آثار المترجم لهم لدى أهلهم وأصدقائهم وقد فعل هذا
لئلا يستبطئه السيد مرتضى ويظن به الضعف والعجز . وقد
جمع هذه التراجم في كرايس عديدة كما جمع إلى جانبها كثيراً
من الحوادث والوقائع في أوراق متناثرة يسميها « طيارات »
تستقل كل ورقة منها بحادث معين ينوي تحقيق صحتها فيما
بعد ثم إنه حمل كرايس التراجم وذهب بها إلى السيد وفي
هذا يقول الجبرتي : « وكان عنده » بعض الشاميين فأطلعته عليها
فسر بذلك كثيراً وطارحني وطارحته في نحو ذلك بمسمع من
المجالس » ولعل هذه المطارحة كانت تصويهاً وتبصيراً والسيد
مرتضى رجل وافر الكياسة بالغ الآين والنعمومة لا يسوئ على
الجبرتي عمله . ولكنه لا يحسنه له كل التحسين . وقد أخذ
السيد ما أخذ مما جمعه الجبرتي واستعان به على كتابة ما أراد
كتابته وعاد عبدالرحمن نشيطاً فرحاً مستشعراً لإصابته للهدف فخوراً
برضى الشيخ عنه عازماً على التوسع في الكتابة والتزويد من المعلومات .

وانقضت سنة ١٢٠٤ ومرت أشهر من سنة ١٢٠٥ والخبز جاد في عمله مكب على الكتابة يسود ويبيض ويحرر ويحرر . ويطلع السيد مرتضى على كتاباته . ويقدم له ما عنده من معلومات وشواهد . ولكن ما بالهم ينعون إليه في كل يوم أميراً خطيراً . وصديقاً كبيراً أو صغيراً . وقد أجفل الخبزي مع المجفلين حين تأكدوا أن الطاعون الأسود قد انتشر في البلاد وأخذ يحرف الناس إلى القبور فداخلهم منه وهم عظيم ووقع الرعب في القلوب فانقضت مجالس العلم وأقفرت حلقات التدريس . وتشتت شمل الإخوان ودارت الدوائر . واشتد الجزع . وأصبح كل امرئ مشغولاً بنفسه عن سواه . وقد وصف الخبزي هذا الوباء وأفاعيله في حوادث رجب سنة ١٢٠٥ فقال : « وزاد أمر الطاعون وقوى عمله بطول شهر رجب وشعبان وخرج عن حد الكثرة ومات به ما لا يحصى من الأطفال والشبان والحواري والعبيد والمماليك والأجناد والكشاف والأمراء . . . حتى كانوا يحفرون حفراً لمن بالحيزة بالقرب من مسجد أبي هريرة ويلقونهم فيها وكان يخرج من بيت الأمير في المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة وازدحموا على الحوانيت في طلب العدد والمغسلين والحمالين . ويقف في انتظار المغسل أم المغسلة الخمسة والعشرة ويتضاربون على ذلك ولم يبق .

للناس شغل إلا الموت وأسبابه فلا تجد إلا مريضاً أو ميتاً
أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو
دفن أو مشغولاً في تجهيز ميت أو باكياً على نفسه موهوماً
ولا تبطل صلاة الجنازة من المساجد والمصليات ولا يصلى إلا
على أربعة أو خمسة أو ثلاثة ونادر جداً من يشتكى ولا يموت
ونادر أيضاً ظهور الطعن ولم يكن بحمى بل يكون الإنسان
جالساً فيرتعش من البرد فيدثر فلا يفى إلا مخلطاً أو يموت
من نهاره أو ثاني يوم وربما زاد أو نقص أو كان بخلاف ذلك .
واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات في جمعة واحدة .
ولا ريب في أن الجبرتي قبع في داره بيولاقي مدة اشتداد الوباء
لأنه لا يعقل أن يموت أستاذه وشيخه السيد محمد مرتضى مطعوناً
في شعبان ١٢٠٥ فلا يمشى وراء جنازته ولا يصلى عليه بل لعله
لم يبلغه نعيه إلا بعد حين وقد فجع الجبرتي فيمن عدا السيد
مرثمى بالكثيرين من إخوانه الأصفياء . ودام وقوع هذا
الطاعون من جمادى الأولى إلى أوائل رمضان ثم ارتفع .
وفي أواخر هذه السنة كان اندهاش الجبرتي عظيماً حين
وصل إليه على يد السيد محمد التاجر القباقيبي كتاب وهدية
من السيد أبي المودة محمد خليل المرادي الحسيني مفتي دمشق
يسأله إرسال ما جمعه السيد المرتضى وما جمعه هو من تراجم

الأعيان ويقول في كتابه : « وهذا ما حررنا بخصوصه لأحد من العلماء ولا من التجار واعتمدنا على الجنب بذلك اعتماداً على المحبة الموروثة ولعلمنا أن جنابكم أولى بذلك من كل أحد ولا سيما ما بلغنا أن السيد ترجمكم » . ويجب أن نفهم من إلماع السيد خليل المرادى إلى المحبة الموروثة أنه كان صديقاً للشيخ حسن الجبرتي ولعل الذي ترجم اه الشيخ مرتضى هو الشيخ حسن نفسه لا ابنه عبد الرحمن وعلى أى حال فإن عبد الرحمن الجبرتي فطن الآن إلى السبب الذى حدا بأستاذه الشيخ مرتضى إلى الترجمة لأعلام المائة الماضية فام يكن ذلك وليد قريحته ابتداء بل نزولاً على رغبة قاضى دمشق وإنما ندبه للتعاون معه لأنه يبنى لم تتأصل مصريته بعد ولم يستبطن دنخائل الحياة المصرية وعاداتها ونزعاتها : والجبرتي وإن كان حبشى الأصل إلا أنه الحفيد السادس لعبد الرحمن جده الأعلى الذى نرح إلى مصر منذ مائتى سنة ونيف واستوطنها سلالته منذ ذلك فالجبرتي مصرى أصيل مطلع على تسلسل الأسر عليم بما بينها من أواصر ودوافع . ومصالح ومنافع . وضغائن ومنازع . والآن من أين له أوراق أستاذه وكراريسه . وهو قد انتقل إلى الرفيق الأعلى واحتلت الشحنة منزله . ونشبت المنازعات بين ورثته على تركته . وقد علم عبد الرحمن من حسن الحريرى أحد أخصاء

أستاذة المرحوم أنه توفي يوم الأحد وأن زوجته وأهلها أخفوا موته حتى نقلوا إلى دورهم كل ما ترك من نفائس وذخائر ثم أشاعوا موته يوم الإثنين وأقيمت الزوجة وصية على التركة من لدن القاضي . لذلك شعر الجبerty بالأسف المرير على الجهد الذى بذله فى البحث والتحرير . ولم يطل أسفه لأن حسن التحريرى هذا جاءه بعد أيام يبلغه أن أرملة السيد عازمة على تزوج أحد الأجناد . وقد فتحوا التركة وأظهروا ما أظهروه منها وأعلنوا بأمر القاضي أنهم سوف يبيعونها بالمزاد .

وأكبر الظن أن الجبerty لم يحضر المزادة مع أنه اشترى « الكتب والدشتات » التى كانت للسيد وبلغ الثمن الذى بيعت به التركة مائة ألف درهم .

وظفر الجبerty فى هذه الأشتات بأوراق الشيخ كلها وفيها رسائله وشعره وكل ما كتبه مما لم يخرجه للناس أما التراجم فكانت مدونة فى عشرة كراريس مرتبة على حروف الهجاء سماها « المعجم المختص » ذكر فيها شيوخه ومن أخذ عنه أو ساجله أو جالسه من رفيق وصاحب . ولكنها كانت ناقصة وفيها بياض كثير . وغالب من ترجم لهم آفاقيون من أهل المغرب والشام والحجاز حتى السودان . ومنهم من لم يشتهروا ولا لهم

بضاعة بين الأحياء والأموات وقد أغفل الكثيرين من كبار العلماء والأعظم .

وعثر الجبرتي في تلك الأشتات على الكتاب الذي أرسله مفتي دمشق إلى السيد مرتضى وتاريخه ربيع الثاني سنة ١٢٠٠ يذكر له فيه أنه كان في بلاد الروم (يريد إسلامبول) قبل العام المذكور وهناك يقول المرادي : « جرى ذكر التاريخ وفقدانه في ذلك الوقت » وكان بالمجلس أحد الأفاضل فقال إن الأستاذ أبا الفيض مرتضى باشر تأليف تاريخ عظيم بإشارة هذا وأشار إلى فقلت نعم قد كنت حرصت الأستاذ بجمع ذلك ولا أدري كيف فعل قال بل اجتهد وأحسن . . . » ثم ذكر السيد خليل أنه وضع من التراجم « ما بلغ نحو ثلاثة مجلدات ضخام ونحوها زيادة باقية في المسودات هذا عدا تراجم أبناء العصر وشعرائه الذين في الأحياء فتراجمهم مجموعة بمجلد آخر » .

ولا شك في أن الجبرتي بعث إلى المفتي رداً على كتابه وقد أيقظت حميته هذه المراسلة وقوت نفسه أوراق شيخه المرحوم فشحن غرب عزيمته . وشرع في جمع ما عنده وعاد إلى التدوين والتحرير والتنسيق والتنضيد وهو يرجو أن يخدم التاريخ أولاً ومفتي دمشق ثانياً . وذكرى شيخه مرتضى ثالثاً . وقد

أسعفته الأقدار في الأولى وحدها فقط لأنه لم يمض طويل زمن حتى نعى إليه الشيخ خليل المرادي الذي توفي في حجاب في آخر سنة ١٢٠٦ ويقول الجبرتي : « لا أدري ما فعل الدهر بتاريخه المذكور (١) » وقد فت نعي المرادي في عضد الجبرتي ففترت همته وطرح تلك الأوراق في زوايا الإهمال حتى كادت تتناثر وتضيع .

(١) نشر هذا التاريخ في ثلاثة أجزاء باسم « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر تأليف العلامة أبي الفضل محمد أفندي خليل المرادي مفتي دمشق الشام المتوفي سنة ١٢٠٦ » وقد وهم المستعرق بروكلمان حين كتب عن الجبرتي فزعم لنا أنه نقل كتاب سلك الدرر من التركية إلى العربية وقد سايرت بروكلمان في هذا الوهم دائرة المعارف الإسلامية مع أن الكتاب لا يحتوي إلا على تراجم شيوخ وعلماء وأدباء وشعراء من أبناء اللغة العربية وكان الحامل على هذا الخطأ ما جاء في آخر الجزء الثاني أنه « تم بحمد الله الجزء الثاني من سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر في ٦ شعبان سنة ١٢٩١ لمحمد خليل المرادي الذي ترجمه الجبرتي ويليه الجزء الثالث وأوله السيد عبد الرحيم وبالله التوفيق » . ففهم بروكلمان من عبارة « ترجمه الجبرتي » أنه نقله إلى العربية وإنما أراد كاتبها ترجمه له الجبرتي أي كتب تاريخ حياته فقط . وهذا الخطأ اللغوي قاد إلى ذلك الخطأ التاريخي فتأمل .

إن الفكرة الصحيحة التي تصيب ذهنًا صحيحًا كالحبة
الطيبة التي تصيب أرضاً طيبة كلتاهما تنمو وترعرع ولا بد
أن تأتي أكلها ولو بعد حين .

أجل إن فكرة التاريخ والتراجم غرست في عقل الجبرتي فهد
لها المغرس وشق لها طريق النمو بما جمع من هنا وهناك وهناك
من المعلومات والمراجع . وقد نهج لها المنهج الصحيح الذي تسلكه
حتى تفضي إلى غايتها لا يعوقها عائق ، ولا يعتورها خطل .
فإذا لم يندفع في تحقيقها عقيب موت أستاذه السيد مرتضى
والسيد خليل المرادي صاحب الفكرة فلعله استشف فيها أنها
غاية يقصر دونها العمر ومطلب لا تفيد فيه العجلة والاندفاع
لذلك ركزت الفكرة في ذهنه سنوات تعد طور الحضانة لها
وفرة الانفعال أو التفاعل .

وتوسط الجبرتي العقد الرابع من عمره وهو مشغول بالدراسة
والتدريس ولعل ابنه خليلاً كان قد ولد له فهو يتعهدده كما
كان أبوه يتعهدده هو . وقد يكون ولد له سواء ولكنه لم يذكر
لنا شيئاً عن هذا .

وكان وقته موزعاً بين البيت والأزهر فالدروس في البيت قليلة نادرة ولكنها في الأزهر منتظمة مستمرة وقد هدم ذكريات طفولته بهدمه بيت الصنادقية وتشيدته من جديد ولكن هذه الذكريات في الأزهر ماثلة حاضرة كيف لا وهو لا يزال يرى نفسه مجاوراً في رواق الشوام إذا فرغ من حضور الحلقة هرع إما إلى الرحبة أو إلى القاعة الكبرى حيث ألوف الطلبة يفترش بعضهم الحصر المبسوطة أو الأرض الممهودة ويمشي البعض الآخر جيئة وذهوباً وفي أيديهم الكراريس الصفراء يتذاكرون ما فيها وكان يلاحظ نودان رؤوس القاعدين المستندين إلى أعمدة القاعة الكبرى كأنما هذا النودان يحصر الذاكرة ويهيئها لانطباع الدروس فيها وبين هؤلاء المجاورين من قطع البحار والقفار ينشد العلم في هذا المعهد العظيم الذي ينتظم العالم الإسلامي من بحر العرب إلى بحر الظلمات ومن مجاهل الصين والهند إلى حدود بلاد الصقالبة حتى مجاهل أفريقيا وطالما امتلأت نفس الجبرتي حبوراً وكبرياء حين يتصور أنه وأسلافه خدموا الأزهر وأخلصوا له فكافأهم بأن رفعهم ومكنهم في الأرض ثم هو يدخر لهم ثواب الآخرة وهو خير وأبقى .

وقد أحب أشياخه كلهم وكان في صغره يتهيب كبارهم ويتحامى المثل أمامهم تعظيماً وتبجيلاً أما اليوم فهو يعجب

لنفسه من ذلك الحياء ولعله سنة ١١٩٠ وقد جال في صدره مثل هذا الخاطر أراد أن يرى شيخ الأزهر وهو يومئذ الشيخ أحمد الدمنهوري فذهب إلى زيارته ببولاق والشيخ مريض لا يبرح داره وفي هذا يقول الجبرتي: « فلما عرفني تذكر الوالد وبكى وعصر عينيه وصار يضرب يده على الأخرى ويقول ذهاب إخواننا ورفقاؤنا ثم جعل يخاطبني ويقول يا ابن أخي ادع لي . . . وكان آخر من أدركنا من المتقدمين » .

أجل مات المتقدمون وصار هو وأقرانه المتصدرين للتدريس والإفتاء يتهافت عليهم الطلبة ويقبلون أيديهم ويتبركون بهم وهو قد سلك مسلك أبيه من ركوب بغلة فارهة يذهب بها إلى بولاق وإذا مر ماشياً في الأسواق والعطفات قام له الباعة احتراماً وتبجيلاً وربما وقف على الدكاكين يسأل عن السلع وأثمانها ووفرتها وقلتها ويحاول أن يستنبط أسباب ذلك كما يوحى إليه فضوله العقلي .

وأصبح صديقه إسماعيل الخشاب لا يزوره إلا مصطحباً شاباً وسيم الطلعة مديد القامة واسع الصدر بعيد ما بين المنكبين براق العينين خفيف العارضين تدل قسما وجهه على أنه مغربي الأصل لكنه يلبس لباس المصريين ويتكلم بلهجتهم لبعده عهد ذويه بالمغرب ولم يكن هذا الفتى الناشئ سوى الشيخ

حسن العطار الذى اشتهر فيما بعد وأصبح شيخاً للأزهر وهو ابن الشيخ محمد كنى العطار . ويذكر الجبرتي أنه كان يرى الشيخ حسن حاضراً فى حلقة الشيخ محمد الصبان حين ألقى حاشيته على الأشموني فى علم النحو كما رآه حاضراً بعض دروس الشيخ مرتضى فى فقه اللغة ، والشيخ محمد الأمير فى بعض مؤلفاته الفقهية واللغوية . إلا أن هذا الفقى كان يرهقه أبوه فى شؤون عطارته فلا يتسع وقته للمثابرة على الدراسة ، ولما كان دكان والده قريباً من باب زويلة حيث دكان سعد الحشاب سهل عليه التعرف باسماعيل ولم يكن أصلهما المتواضع وحده سبباً فى توثيق أواخى المحبة بينهما بل هو ائتلاف الأمزجة ، واتفاق الطباع . وكل منهما أديب شاعر يشدو بالجمال ويستبين الفكرة الفنية فى شعور مبهم . ولا شك فى أنهما كانا برمين بالدروس الفقهية وما فيها من خلاف ومجادلة ومعاينة ومناضلة . مع أنهما أخذتا أصولها واستكفيا بها وأما الفروع وما يتشعب منها والدقائق وما ينجم عنها ففسد زهدا فيها ورغبا عنها إلى الأدب والشعر وما فيهما من رقة وعذوبة ، وعاطفة صادقة ومكذوبة . فهناك الطلاقة التى ينشدانها ويصبوان إليها . وما يذكر لهما بالحمد أنهما فهما نفسية عبد الرحمن الجبرتي وميزاه عن سائر الأشياخ وفطنا إلى اتساع ذهنه ورحابة صدره ،

وأخذه من علوم عصره بأوفى نصيب . بل هو يتجاوز عصره
بتفكيره الفذ وثاقب نظره إلى الناس والحوادث .

قال عبد الرحمن : إن الشعر حلى وزخرف والأدب أداة
للتعبير في لفظ سهل جميل وإنما هما من متاع الدنيا فإذا جعلنا
أصلاً كان ذلك جناية على الآخرة .

قال العطار : هذه نظرة ضيقة فإنما الشعر والأدب طبيعة
في النفس ولا تجنى الطبيعة على المرء إلا إذا وجهها إلى الشر ،
وما دام يملكها ويدفعها في السبيل السوى فعاقبتها خير وأبقى .

قال الحشاش : نحن في عصر غطت فيه العلوم الفقهية على
كل علم آخر ، ونحن نريد إحياء الأدب وتاريخه ، والشعر
ومادته . ولا سبيل إلى هذا . ثم هل تظن أنه لولا الشعر والأدب
كان يمكنني أن أجالس مصطفى بك المحمدى أمير الحاج
وحسن أفندى العربية والشيخ السادات وغيرهم ؟

قال الجبرتي : لعل هذا هكذا ولكن الاشتغال بالعلوم
الفقهية أبقى ثواباً .

قال الشيخ حسن : ولماذا ؟ ما دام الدين مصوناً متبوعاً .
قال الحشاش : عفواً فإنني تبهرت في الصوفية وأولعت بها
وأكاد أضاهيك فيها يا عبد الرحمن ، وأؤكد لك أن الإيغال في
أسرارها تفتق الشاعرية فيكون الشعر جزءاً منها ويكون الاشتغال

بها على هذا القياس أبقى ثواباً أيضاً .
 فضحك الجبرتي وقال : لو كان ما تقوله صحيحاً لكنت
 شاعراً مثلك الآن .
 قال الشيخ حسن : ولكنك شاعر في نفسك لا تنظم الشعر
 بل تحسه .

* * *

ولعل كثرة الدرس والتدريس أثرت في صحة الجبرتي فقد
 شكا كثيراً « ضعف البدن . وضيق العطن » أما صديقه الخشاب
 فكان نحيف البنية ضعيف الحركة كما وصفه . ولعل هذه
 الموافقة جعلته يكثر من المطالعة في تذكرة داود ظناً منه أنه
 بها يستفيد علم الطب ويستخلص طرائق تحضير الأدوية
 التي ينتفع وينفع صديقه بها، وإلا فلا معنى لاشتغاله باختصار
 تذكرة داود في كتاب لا يزال محفوظاً إلى الآن (١).

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية لس . ج . ا . ن . ن . خ ١٣٦ ن . ع
 ٤٤٠٤ وعدد أوراقه ٢٤٦ وهو « مختصر تذكرة الشيخ داود الأنطاكي
 تأليف العلامة الهمام الشيخ عبدالرحمن الجبرتي الحنفي مذهباً غفر الله لنا وله .
 وقد تمت « هذه النسخة المباركة يوم الخميس لأحد عشر يوماً خلت من
 شهر جماد آخر من شهر سنة ١٢٣٦ (أى في حياة الجبرتي) بخط هلال
 ابن محمد بن هلال ... » وليس للكتاب مقدمة ولا خاتمة ولا ما يدل على
 نسبه إليه سوى ما ذكرناه .

وكان الجبرتي يحس بتعب شديد من معاناة الجدل الفقهي والغوص على حل المسائل الحسابية والهندسية فهو فقيه ولكنه (حيسوب) على حد تعبيره في وصف من يتقن العلوم الرياضية . وهو الذي حرر المحراب على انحراف القبلة للجامع أبي هريرة بالجيزة الذي عمره الأمير عبد الرحمن بن عثمان . وكان يلقي في الأزهر وفي منزله علم الفلك والهندسة والحساب والفقه واتبع طريقة تدوين دروسه في كراريس حتى لا يحتاج إلى الاستعداد لها كلما ألقاها . وقد راجع كتاب والده في الموازين والقبابين وعلق عليه وشرح غوامضه . وكانت هذه المسائل العلمية الجافة ترهقه وتنال من صحته فهو يستريح منها إلى قراءة ألف ليلة وليلة ويتسلى بما فيها من خرافات وأخيلة عجيبة غريبة . على أنه سرعان ما تنبه إلى أن هذه الأقاصيص قد اختلف ما فيها من خيال وتباين ما فيها من أسلوب . واسترعى نظره هذا الشعر المدسوس فيها ومنه ما نظم بعد العصر الذي جرت فيه الحوادث المروية . وقد قلنا إن فكرة التاريخ والتراجم وما كتبه لإرضاء لشيخه السيد مرتضى ولدت في نفسه عادة الكتابة والبحث وهذا أيضاً يفسر ما ورد عنه أنه وضع نقداً لكتاب ألف ليلة وليلة . وأعله عثر في خزانة والده على كتب قديمة فارسية أو تركية تمت إلى ألف ليلة وليلة بشئ من

الصلة حملته على وضع بحث جامع فيها ولا يبعد أن يكون له
إلمام بالتركية أو الفارسية ما دام أبوه كان يتقنهما . وقد أكد
المؤرخون أن بحث 'لانتقادى فى ألف ليلة وليلة قد فقد، فاكثفينا
بالإشارة إليه .

هزم بونابرت المماليك فى معركة أنبابة التى يسميها
الفرنسيون معركة الأهرام يوم السبت ٧ صفر سنة ١٢١٣
(٢٣ يوليو سنة ١٧٩٨ م) فهرب إبراهيم بك شرقاً ومراد بك
جنوباً . وتواترت أخبار الهزيمة إلى القاهرة فانتشر فيها الهرج
والهلع وظن الناس الأتانيين فتطايروا إلى الريف محتملين
ذخائرهم ونفائسهم وما هو إلا أن ابتعدوا عن القاهرة حتى تلقفهم
الآعراب وسلبوهم أمتعتهم وأموالهم فرجعوا أدراجهم عراة
محسورين . ولم ينج إلا من كانوا فى كثرة مخفوريين .

وكان بونابرت قد أرسل من الإسكندرية منشوره المشهور
إلى أهالى مصر وخيل إليه أن الناس صدقوا ادعاءه بأنه حضر
إلى مصر ليستخلصها من ظلم المماليك لذلك إزم مكانه بعد
المعركة ودهش حين لم يحضر إليه أحد . وفاته أن منشوره
العجيب لم يقنع المسلمين ولا أرضى النصارى .

ولما ذهب إليه وفد على رأسه الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ
سليمان الفيومى علم منهما أن المشايخ الكبار هربوا « فقال
لهم : لاى شىء يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوان

لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان ثم انفصلوا من معسكرهم . . . «
 أين كان الجبرتي في هذا كله . . . ؟

إنه لم يذكر عن نفسه شيئاً ولكن أهله قالوا عنه بعد موته
 للمسيو الكسندر كاردان أنه ذهب إلى أبيار وأن بونابرت
 استدعاه وعينه عضواً في ديوانه . . .

وهذا كلام - نصدق الشق الأول منه فقط وهو أن الجبرتي
 برح القاهرة ووصل إلى أبيار ونجا من الأعراب لأنه بلا شك
 كان مخفوراً أما الشق الثاني فتفسيره أن الصاوى والفيومى لما
 سألهما بونابرت أن يكتبا إلى المشايخ الهاربين كتباً إليه فيمن
 كتباً إليهم فعاد إلى القاهرة ولكن بونابرت لم يعينه عضواً
 بالديوان .

وأغلب الظن أن صديقيه الخشاب والبطار لم يبرحا القاهرة
 ولما عاد عبد الرحمن الجبرتي من أبيار بعد غيبة لم تطل أكثر
 من عشرة أيام شعر أن جو القاهرة قد تغير وعهدها القديم قد
 تبدل فهؤلاء الغرباء قد ملكوا القلعة وانتشروا في البلد وسكن
 كبيرهم بونابرت قصر الأمير محمد بك الألفى بالأزبكية بخط
 الساكت الذى أنفق عليه الأمير أموالاً عظيمة ولم يكد يتمه
 ويتوافد عليه المهثون حتى أبلجأه الفرنسيون إلى الهرب وعلم

الجبرتي أن الممالك قد انتهت بيوتهم وصودرت أموالهم ولم يبق لهم أى أثر . وما يكاد يجتمع بإخوانه الشيوخ حتى عرف أن عشرة (١) منهم يؤلفون ديواناً ينظر فى مصالح العباد . وما عثم الجبرتي حتى رأى القاهرة تموج بالجنود وهم يتأدبون مع الأهالى . فإذا اشترى أحدهم سلعة دفع ثمنها كاملاً بلا مساومة . ورأى دكاكين عديدة فتحها الأهالى لبيع المأكولات كما فتح بعض الأروام محالاً لبيع الأشرية والخمور . ولفت نظر الجبرتي مطعم أنشأه بعض الإفرنج فيه عدة مجالس على كل منها علامته ومقدار الدراهم التى يدفعها الداخلون فيجلسون يأكلون ويشربون ويدفعون ما وجب عليهم ثم ينصرفون . ولكن شق عليه أن يرى الكثيرين من صعاليك الأقليات قد ارتفع مقامهم وأصبحوا ذوى حوك وطول .

وكان بونابرت يتحجب إلى المشايخ ويكثر من أسباب اللهو . للناس ليشغلهم بإقامة الحفلات والزينات فى الأزبكية والمشهد الحسينى والمقياس . وأراد أن يظهر للمصريين أنه راغب فى تدريبهم على حكم أنفسهم فأنشأ ديواناً عمومياً مؤلفاً من ١٨٠ عضواً يمثلون أقاليم مصر ولكن هذا المجلس لم يجتمع إلا مرات

(١) فى رواية الجبرتي عشرة وفى رواية نقولا الترك ثمانية وفى رواية

معدودات حتى نشبت في جمادى الأولى ثورة القاهرة وكانت هوشة طائشة اتسع نطاقها في الأحياء المطيفة بالأزهر ولم تطل أكثر من ست وثلاثين ساعة وقد أغلظ بونابرت في قمعها ولم يسجح ولا قبل في المتهمين وساطة وسيط ولا شفاعة شفيع وعطل الديوان والمجلس وبعد شهرين عاد فأنشأ ديواناً عاماً جمع ستين عضواً تنتظم جلساته في فترات معينة ويتفرع منه ديوان مؤلف من أربعة عشر عضواً هو الديوان الخاص أو الديموى لأن أعضائه يعقدون جلساته كل يوم وظل هذا الديوان قائماً والحوادث ترى . . .

وقد أراد بعض المؤرخين أن يعلل الخطأ الذى تورط فيه الذين ترجموا للجبرتي وهو تعيين بونابرت إياه عضواً في الديوان فقالوا ربما عينه في الديوان العموى ولكن هذا الديوان كان يضم أعضاء انتدبتهم الأقاليم ليمثلوها فيه فهو مجلس نيابى ولم تكن للجبرتي أهلية تخوله عضويته وقالوا بل ربما ألحق كاتباً بالديوان وهذا أيضاً لا يتفق ومقام الجبرتي وثرأه بل فيه تقليل لشأنه ونزول به عن درجة أقرانه نظنه لا يرضى به .

* * *

لقد أصبح الفرنسيون عنصراً جديداً في الحياة المصرية فاختلفوا بالناس واتصل كبارؤهم بكبراء المصريين ووضعواهم

بوضعائهم وكان الجبرتي يذهب مع صديقيه الخشاب والطار
إلى بركة الأزبكية لمشاهدة الحفلات العامة وبخاصة الحفلة
التي أقيمت في ٢٠ جمادى الثانية وأعلنوا أنهم سيطيرون بها
مركباً في الهواء ثم أخفقت تجربتهم . وشهد الجبرتي تغيير معالم
القاهرة وهدم البيوت والمصاطب وقلع الأشجار وتوسيع الطرق
وأعجبه أنهم لا ينقلون الأتربة بالمقاطف على الأكتاف بل
في عربات يد يدفعونها دفعاً فيتحقق العمل بها سريعاً . وشاهد
الجبرتي تدريب العساكر وكيف يقف « المعلم والمتعلمون مقابلون
له صفّاً بأيديهم بنادقهم فيشير إليهم بألفاظ لغتهم كأن يقول :
« مردبوش » فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها ثم يقول
« مرش » فيمشون صفوفاً إلى غير ذلك » وهذه الطريقة في
التدريب هي التي سماها فيما بعد « النظام الجديد » والعساكر
الذين تدربوا بها دعوا جنود النظام الجديد . ولعل الجبرتي لم يحضر
الاجتماع الذي دعا بونابرت إليه مشايخ الديوان ليروا التجارب
العلمية التي يقوم بها علماء الحملة وهو الاجتماع الذي وقف
فيه الرياضي مونج والكيميائي برتوليه يعرضان على المشايخ
كيفية استخراج المساحيق المفرقة والمياه المجمدة . وأراد
بونابرت أن يدهش المشايخ بما يحدثه التيار الكهربائي من
اختلاج الجثث التي يطلق عليها كأنما ردت إليها الحياة

لكنهم لم يدهشوا ولا استفزتهم هذه التجارب بل سأل الشيخ
 خليل البكرى الكيمياءى برتوليه إذا كان يمكنه أن يكون في
 مراکش والقاهرة في آن واحد فلم يجبه برتوليه على سؤاله فقال
 له الشيخ البكرى ألا ترى أنك لست ساحراً . . .

ولم يذكر الجبرتي هذا الحادث ولا شك أنه نمي إليه حتى
 دفعه الفضول إلى زيارتهم بصحبة الشيخ السادات بل هو
 زار مراراً خزائن كتبهم ومصانعهم وشهد تجاريهم العلمية واطلع
 على تصاويرهم ورسومهم وآلاتهم وفي ذلك يقول « وإذا حضر
 إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعون الدخول إلى
 أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور
 بمجيئه إليهم . . . » ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعوني على ذلك فمن
 جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على نسرة النبي صلى الله عليه
 وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم
 وهو قائم على قدميه ناظراً إلى السماء كالمرهب للخلقة ويده
 اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضي الله
 عنهم بأيديهم السيوف وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين
 وفي الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم
 راكب عليه من صخرة بيت المقدس . . . » وذكر الجبرتي
 الآلات العجيبة التي رآها عند توت الفلكي ولكنه لم يذكر

اتصاله بالفلكي نوى مع أنه عرفه وسأل عنه في آخر أيامه
كما سيأتي . وأعجبه في بيت أبرهيم السنارى صور المشايخ
التي رسمها أراجو وأدهشه ما يصنعه روياء في بيت ذى الفقار
كتخدا من تجاريب كياوية ومستحضرات طبية وشهد في
بيت كاشف جركس تحضير الأعشاب والنباتات واستخراج
المياه الجلاءة والحلاة قال الجبرتي : ومن أغرب ما رأيته في ذلك
المكان أن بعض المتقيدين أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوعة
فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً في كأس
ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماء آن وصعد منه
دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر
فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل
كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق وبأخرى فجمد حجراً
أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضع
على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل
كصوت القربانة انزعجنا منه فضحكوا منا . . . وغير ذلك
أمور كثيرة وبراهين حكيمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة
الطبائع ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجات فيتولد
من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء ويظهر له صوت
وطقطقة فإذا أمسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها

ولس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلاً به حصل ذلك له واو كانوا ألفاً أو أكثر ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة تنتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا « ولا يغرب عن الذهن ما تنطوي عليه العبارة الأخيرة من معان . . .

وكان المستشرق، مرسيل مدير المطبعة صديقاً حميماً للشيخ محمد المهدي كاتم سر الديوان يجتمع به في دار قاسم بك مع نفر من العلماء يسمرون في الحديقة تحت أشجار الليمون ولا بد أن يكون الجبرتي اتصل بهم وسمر معهم أما صديقه الخشاب فقد اتصل بشاب فرنسي من علماء الحملة اسمه ريج كان جميل الطلعة يروي الشعر العربي ويحفظ كثيراً من الآيات القرآنية وقد أحب الخشاب ريج هذا وتغزل به وذكره في شعره قال :

أريج زكى المسك أنفاسك التي

أريج شذاها قد تبسم عن عطر (١)

(١) هكذا ذكرها الجبرتي وهكذا وردت في ديوان الخشاب المطبوع

بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ ولعله تبسم بالنون لا بالباء

أما حسن العطار فكان كثير الجلد والتفكير في كل ما يشهد
من أفعال هؤلاء العلماء والأجانب ويقيس ما عندهم بما عند
علماء مصر فيرى البون شاسعاً والفارق عظيماً .

على أنه ما كان المصريون ليرضوا عن الفرنسيين ولا صدق
أحد منهم منشورات بونابرت التي كانت تنهر عليهم كل يوم
وفيها أنه يحب المسلمين ويعظم الإسلام ويسفه عقائد النصارى
وقد زعموا أنه وعدهم باعتراف الإسلام وبناء مسجد يؤسم باسمه
ومن العجب أن بونابرت العبقري لم يفهم أن المصريين رأوا في
مسلكه هذا حيلة مفضوحة لا تجوز على الجاهلاء بله العلماء .

ولا شك في أنه لولا اختلاف الدين لرسخت قدم الفرنسيين في
مصر كما رسخت قدم الأتراك فيها من قبل ومن بعد ثم هضمت
مصر الأتراك وأنستهم أصلهم وأصبحوا أبناءها البررة الأوفياء .

فاختلاف الدين كان إذن السبب الجوهري في عداوة المصريين
للفرنسيين . وهناك أسباب أخرى نفرت منهم القلوب بمت أغلبيتها

إلى الأخلاق والساوك . فالفرنسي خفيف النفس يحب اللهو
والمرح والخمر والنساء ويجهر بمجونه وخلاعته . والشرقي بنشأته

وتربيته يحب الستر والصون والحجاب والعفة . وحسبنا في

وصف الأسرة المصرية ما قاله الجبرتي عن أسرة الشرايبي أنه

« لا تخرج من بيتهم امرأة إلا للمقبرة فإذا عملوا عرساً أولوا

الولاثم وأطعموا الفقراء والقراء على نسق اعتادوه وتنزل العروس من حريم أبيها إلى مكان زوجها بالنساء الخالص .

وقد قلب الفرنسيون هذه الأوضاع كلها وتبدلوا في سلوكهم ومعيشتهم فكثرت في أيامهم حانات الخمر واتخذوا ركوب الحمير ملهاة لهم في الشوارع حتى قال حسن العطار :

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم في مصرنا بين حمار وتختار وأطلقوا الحرية للنساء فانتشرت الخلاعة وعم المحجون وسرت عدواهم إلى أولاد البلد واختبئ المجتمع المصري بهم اختباطاً عظيماً .

وقد صور الجبerty ما كان يفعله الفرنسيون تصويراً رائعاً في أسلوبه التقريرى حيث قال : « لما حضر الفرنسيين إلى مصر

ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نساؤهم وهن حاسرات الوحوه لابسات الفستانات والمناديل الخيرية

الملونة ويسدن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع

الضحك والقهقهة وبداعبة المكارية معهم وجرافيش العامة فالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش

فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال هن . . . »

وطالما نعى الجبerty على الفرنسيين : « شدة رغبتهم في النساء

وخضوعهم هن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن واوشتمته

أو ضربته بتاسومتها (أى حذائها) ومما كان يزيد في النكاية أن ضباطها لاخطاط كانوا يتزوجون بالمسلمات من بنات الأعيان فتقبل المسلمات الزواج : « رغبة في سلطانهم ونوالهم فيظهر (الزوج) حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها . وتمشى المرأة بنفسها . أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصي يفرجون لمن الناس مثلما يمر الحاكم » . على أن هذه الحال لم تقتصر على النساء البيض بل عدتهن إلى الجوارى السود فإنهن : « لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً فرادى وأزواجاً فنظنن الحيطان ، وتسلقن إليهم من الطيقان » .

* * *

اقتنع بونابرت بعد فقدان العمارة الفرنسية في مياه أبو قير . بوجوب الاستكفاء بما عنده لاستحالة ورود النجدة من فرنسا فعمل على تركيز جيشه في مصر وحرد حملته المشهورة على الشام وارتد عنها لاستعصاء عكا عليه وثأر لنفسه في معركة أبو قير البرية إذ دحر الإنكليز والعثمانيين ثم سافر إلى فرنسا بعد أن عهد بالقيادة العليا إلى كليبر . وكانت سياسة بونابرت مزيجاً من الشدة واللين والصدق والكذب وقد نظم الإدارة تنظيمًا دقيقاً

ونظم الجيش تنظيمًا أدق ووزع على كل واحد من أعوانه مهمة خاصة سواء في البحث العلمي أو العسكري أو الإداري وهو بعد لم يقيم في مصر إلا سنة وشهرين .

وكان خلفه كليبر يرى وجوب الجلاء عن مصر والعودة إلى فرنسا وقد فاوض العثمانيين والإنكليز في ذلك وعقد معهم الهدنة المعروفة بهدنة العريش ولكن الإنكليز نقضوها بعد أن دخل القاهرة عشرة آلاف من الجنود العثمانيين على رأسهم نصوصح باشا ومعه إبراهيم بك الكبير ومماليكه .

وأبى كليبر التسليم وحاربهم وانتصر عليهم في معركة هليوبوليس ثم عاد إلى القاهرة فحاصرها وبدأ ببؤلاق فأفحش في التنكيل بأهلها وأحرق دورهم وسبي نساءهم وأولادهم ونهب أموالهم وكر بعد ذلك على القاهرة فأمر في التضييق عليها وضربها بالقنابر وأشعل النار في شوارعها وعطفااتها حتى فتحها عنوة واسترد سلطته عليها بعد أن تهدمت أحيائها وخربت دورها وقصورها ثم أخذ كليبر القاهريين أخذًا عنيفًا بما فرضه عليهم من المغارم الباهظة مع أنهم راحوا ضحية الفرنسيين أنفسهم الذين نشروا شروط الهدنة وسمحوا للعثمانيين بدخول القاهرة وراحوا ضحية العثمانيين الذين منوهم الأمانى وخذعوهم بالأكاذيب وأخفوا عنهم هزيمتهم وانقطاع المدد عنهم على أنه ما عثم كليبر

أن اغتاله بعد شهرين سليمان الحلبي . كما هو معروف وخلفه على القيادة الجنرال جاك منو .

ولا شك في أن الجبرتي كان أيام تدمير بولاق في منزله بالصنادقية وقد انحاز إلى المدافعين ، انحياز الناصح الشفيق الذي يحكم العقل وينكر الطيش ولقد شفى نفسه تقريع الشيخ السادات لإبرهيم بك الكبير واتهامه بأنه جر على الأقاليم هذا الهول والويل ومما قاله له : « كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم وآخر أمرنا معكم ملكتمونا للإفرنج . . . » وقد حمل الجبرتي على القادة حملة عنيفة لأنهم أخطأوا التدبير وغرروا بالناس فأهرقت دماء بريئة ، وزهقت أرواح طاهرة . وقد حز في صدره سلوك رجل مغربي تصدر لقيادة العامة وصار يأمر وينهى ويهدد بنقض الصلح الذي أبرموه « وهو ليس ممن له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال ، ورأيه في الصلح افتيات وفضول ودخول فيما لا يعنيه » .

أما حسن العطار فقد هاجر إلى أسيوط حيث أقام ثمانية عشر شهراً كان يرسل الجبرتي خلالها وقد نجاه الله من الطاعون الذي اجتاح بلاد الصعيد ومات به مراد بك وكثير من الأمراء والناس وكان مراد بك قد هادن الفرنسيين فأمروه على الصعيد ولم يمالئ عليهم حتى موته .

وكان جاك منو قد أظهر الإسلام وسمى نفسه عبدالله وتزوج امرأة مسلمة من رشيد اسمها زبيدة ورزق منها غلاماً اسمه سليمان فسلكت مع المصريين مسلكاً رفيقاً وأراد أن ينهج سياسة إسلامية مصرية فأنشأ ديواناً على نسق جديد ليس فيه خصوصى ولا عمومى بل هو ينتظم كما قال الجبرتي « تسعة معممين لا غير ليس فيهم قبطنى ولا وحاقلى ولا شامى ولا غير ذلك . هم الشيخ عبدالله الشرقاوى رئيس الديوان والشيخ المهدي كاتب السر والشيخ الأمير والشيخ الصاوى وكاتبه والشيخ مرسى السرسى والشيخ خليل البكرى والسيد على الرشيدى نسيب سارى عسكر والشيخ الفيومى والقاضى إسماعيل الزرقانى وكاتب سلسلة التاريخ السيد إسماعيل الحشاش والشيخ على كاتب عربى وقاسم أفندى كاتب روى وترجمان كبير القس رفائيل وترجمان صغير إلياس فخر الشامى والوكيل الكمثارى فورييه » واختاروا لهذا الديوان بيت رشوان بك بحارة عابدين وعينوا له عشر جلسات فى كل شهر .

وانمطة كاتبه الواردة بعد اسم الشيخ الصاوى تعنى عبد الرحمن الجبرتي (١) وطالما مر بها القراء سراعاً وظنوها كاتب الشيخ الصاوى

(١) جاء فى الصفحة ٤٤٠ من الجزء الخامس عشر من كتاب وصف مصر أن الفرنسيين لما أصلحوا مقياس الروضة أرسل أعضاء الديوان إلى كبير المهندسين كتاب شكر تاريخه ٧ شعبان سنة ١٢١٥ وذكر فى هامش

وقد كررها الجبرتي مرة أخرى حين عاد الإنكليز والعثمانيون واستولوا على رشيد وأبو قير وزحف يوسف باشا بعساكره على القاهرة فأخذ الفرنسيون رهائن من المشايخ وهم الشرقاوى والمهدى والصادى والفيومى وكان على الرشيدى قد سافر مع ابنته زوجة منو إلى الاسكندرية فأمروا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم كما يقول الجبرتي « البكرى والأمير والسرسى وكتابه أن يكون نظرم على البلد » .

فأصبح الجبرتي إذن من الرؤساء وصار له رأى فى القضايا وكلمة فى الدوائر العليا كما نقول اليوم وهو مركز يمكنه من الاطلاع على المكاتبات والمراسلات وتدوينها فى كراريسه بحروفها كما يطلع على محاضر الجلسات التى يجرها الخشاب ويحفظ لنفسه صورة منها لا كما كان أيام بونابرت لا تصل إليه إلا المنشورات التى تذاع على الجماهير والأخبار التى تنقلها الألسن .

وقد تكون هناك صلة بين تعيين الجبرتي عضواً فى الديوان

= الصحيفة أن الديوان لذلك العهد كان مؤلفاً من خليل البكرى وعبد الله الشرقاوى وسليمان الفيومى ومحمد الأمير ومحمد المهدى وعلى الرشيدى وعبد الرحمن الجبرتي ومصطفى الصاوى وبوسى السرسى وقد ذكرت الأسماء بهذا الترتيب .

وتعين إسماعيل الخشاب كاتباً لسلسلة التاريخ وأو كان الشيخ حسن العطار في القاهرة ما كان بعيداً أن يعين أيضاً في وظيفة ما .

وعلى كل حال فقد أعجب الخبرتي بعناية القوم كما يقول « بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم ثم يجمعون المتفرق في مخلص يرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها في جميع الجيش حتى لمن يكون في غير مصر من قرى الأرياف فتجد أخبار الأمش معلومة لأجليل والحقير منهم فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذكرنا كان هو (أى الخشاب) المتقيد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر ونهى أو خطاب أو جواب وقرروا له في كل شهر سبعة آلاف نصف فضة فلم يزل متقيداً في تلك الوظيفة مدة ولاية عبداللّه جاك منو حتى ارتحلوا من الإقليم » .

ويستفاد من هذا الوصف أن الخشاب كان يدون محاضر الديوان فقط ولا شأن له في تحرير جريدة بريد مصر ولا العشريات المصرية اللتين تصدران بالفرنسية ولم تكن له يد في مشروع صحيفة يومية عنوانها التنبيه غمرتها الحوادث فلم تصدر .

وقد أسهب الخبرتي في نقل الأحاديث التي كانت تجري

في ذلك الديوان ولا بد أنه كان من المتصدرين فيه وإن أبي
أن يذكر ذلك عن نفسه تواضعاً منه لأن الوكيل فورييه حين
قال لأعضاء الديوان كأنما يعتذر عن حوادث بولاق والقاهرة :
« إن الذي أوجب الاغتصاب والعسف إنما هي الحرب ولو
دامت المسألة لما وقع شيء من هذا » أجابه بعض أهل الديوان
ولا بد أنه الجبرتي وإن لم يذكر ذلك : « سنة الملوك العفو
والصفح وما مضى لا يعاد فارحموا واعفوا عما سلف . . . »
وكانت تقع بين الوكيل والأشياخ مناقشات طريفة نعتقد
أن الجبرتي كان من أكبر المساهمين فيها نكتفي بالإشارة
إليها هنا .

ولم يطل أجل هذا الديوان إلا أشهراً استولى خلالها العثمانيون
والإنكليز على رشيد وأبو قير والرحمانية وحصروا منوفي الإسكندرية
وزحفوا إلى القاهرة وتخرج موقف الفرنسيين وهم مع ذلك
يتجلدون ولا يستضعفون حتى انعقد الصلح وتخلوا عن القاهرة
يوم الجمعة ٢١ صفر سنة ١٢١٦ وجلوا عنها يوم الأربعاء
٤ ربيع الأول من هذه السنة بعد أن تحكوا فيها ثلاث سنوات
وواحداً وعشرين يوماً .

ودخل الجيش العثماني القاهرة وعلى رأسه يوسف باشا ففرح
الناس لهم فرحاً عظيماً وتجاوزوا لهم عن المظالم التي استهلوا

عهدهم بها لأن رجوعهم معناه استعادة السيادة الإسلامية على الأقاليم وهي أمنية الكافة التي جادوا بالأرواح والأموال في سبيلها .

وكان الجبرتي قد دون في كراريسه فظائع الحملة الفرنسية ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت إليه واطلع عليها فرأى أن يشاطر الناس فرحهم ويحتفي معهم بهؤلاء العثمانيين فوضع كتاباً اسمه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » أهداه إلى الوزير يوسف باشا واستهله بقوله : « حمداً لمن جعل كلمة الدين كفروا السفلى . وكلمة الله هي العليا . وجعل الدولة العثمانية والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا » ثم ذكر فضائل مصر وفتح العثمانيين لها وألمع إلى ماعة خاطفة إلى استقرار الممالك فيها وذكر أن الدولة : « استنامت إلى الممالك اتكالا على شجاعتهم فخربوا الثغور . وشادوا القصور » لذلك سهل على الفرنسيين فتح مصر « ولقد كادت تعم الرزية . وتصير القضية أندلسية » لولا عناية السلطان سليم « غياث المسلمين . ملاذ المؤمنين . مالك رقاب الأمم . . . » بتوجيه وزيره يوسف باشا لاستنقاذها فكان مثله في هذا مثل سميح يوسف الصديق عليه السلام . ثم افاض في سرد حوادث الحملة كما فصلها فيما بعد في تاريخه العام ولكنه لم يذكر شيئاً عن اتصاله بالفرنسيين

وحضور حفلاتهم ومشاهدة تجاريهم العلمية ومفاوضة علمائهم
وأغفل وثائق محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر وأكثر من نعوت
الحبيث واللعين والخاسر. ولم يذكر عن نفسه أنه كان عضواً
في الديوان الذي أنشأه منو بل قال « هو ديوان واحد
مركب من تسعة أشخاص وكاتبين مسلمين وكاتب
فرنساوى وتزجمانين كبير وصغير والوكيل المسمى فورييه »
ولم يترجم لمن مات من المشايخ بل أورد نبذا قصيرة عن مات
من الأمراء فقط ووقف بالتاريخ آخر شعبان سنة ١٢١٦
« لأنه لما كانت حوادث الأيام لا تقف على حد . واستقصاؤها
لا يدخل تحت قدرة أحد . ناسب أن يجعل ختام هذا التاريخ
شهر رمضان المعظم . وأن يكون عقد شهوره بواسطة متمم . . »
ثم عدد فضائل شهر رمضان المبارك إلى أن قال : « وأيضاً
إن شهر الصيام مقدمة شهر العيد . الذى هو موسم السرور
المديد وقد كان قدوم المشار إليه (يريد الوزير يوسف باشا) نظر
الله بعين الرعاية إليه ، مفتاح أبواب المسرات التى أطال انغلاقها .
ومعيد بهجة مصر التى كسف بظلام الكفرة إشراقها . ثم
لسدته التى هى ملثم شفاه الإقبال . ومحط رحال أفاضل
الرجال . أهدي كاسد هذا التصنيف . وخامل هذا الترصيف .
فإن لاحظ به عين القبول وذاك هو المتيقن والمأمول . راج فى

معالم الأدب سوقه . وبطالع السعد لاح شروقه » . وختمه
بهذين البيتين :

سعد تاريخنا بإقبال صدر بمعالى ثنائية مسطور
فلهذا يقول بشرى أرخ باجتناء السرور جاد الوزير
(١٢١٦)

ولا شك أن هذين البيتين من نظم الشيخ حسن العطار
الذى ضمن هذا الكتاب فصولا من إنشائه المسجوع وخالصة
تعليقه على قصيدة الصيرفى التى مدح بها أحمد باشا الجزار
وهى ثمانون بيتاً أو تزيد أدرجها بحروفها ونقدها لغوياً
وعروضياً .

وجرى الجهرى فى أساوبه مرسلا حيث يسرد الأحداث
اليومية . ومسجوعاً حيث يصف المعارك والفتن . وقد تعمد أن
يكون واقعياً مقررّاً . لا إنشائياً محرراً . حتى جاء كتابه شهادة
عيان . لا مقطوعة بيان . ولا بد أن الذين طالعوه أيامئذ تبينوا
أنه قطعة من سلسلة سابقة لا كتاب مستقل . ولعله بادئ
ذى بدء لم ينتشر إلا بين الأخصاء .

ولا شك أن الوزير يوسف باشا لحظ الكتاب بعين القبول
لأنه بعد أوبته إلى دار السلطنة غرضه هناك على السلطان سليم
فأمر السلطان كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى التركية

ففرغ من نقله إليها سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧ م) .
 ونكاد نؤكد أن يوسف باشا علم أن الجبرتي ليس مؤرخاً
 فحسب بل هو أيضاً عالم فلکی فأکبر علمه وعهد إليه بتحرير
 التقاویم والتوقييت ورتب له جعلاً على ذلك .

لم تعرف القاهرة أشأم من السنوات الأربع التي مرت بها
منذ خروج الفرنسيين إلى ولاية ساكن الجنان محمد علي باشا .
فقد اختببت الأجناد وتطاحنوا فيما بينهم وطرد الوالي محمد باشا
خسرو وقتل علي باشا الطرابلسي كما طرد أحمد باشا خورشيد .
وبطش الأرنؤوط بالانكشارية الذين كانوا يزعمون أنهم
« فخذ السلطنة » فلم يستقم أمرهم بعد ذلك وأولا الإنكليز
لأباد العثمانيون طائفة المماليك الذين أخفقوا في ارتجاع سلطانهم
البائد . وكانت مصر مراحاً لعبث الأجناد وإفسادهم من عثمانية
ومغاربة وإنكشارية وأرنؤوط ودالاتية فتفاقم الاعتداء على
الناس بالضرب والسلب والنهب حتى القتل وكثر خطف
العماثم عن الرؤوس وخطف الحمير والجمال والنساء والغلمان . .
فالدور تغتصب . والحرمات تنتهك . والمغارم تفرض .
والمظالم تزيد . والمصادرات تتعدد « وتمنى أكثر الناس وخصوصاً
الفلاحين أحكام فرنساوية » وفحش الأمر جداً قبلي وبحري
حتى وقف حال الناس ورضوا عن أحكام الفرنسيين .
« وتمادى قبائح العسكر بما لا تحيط به الأوراق والدفاتر

بحيث إنه لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات
 غالب الجهات ، إما لأجل امرأة أو أمرد أو خطف شيء أو
 تنازع وطلب شر « وفجروا بالنساء . . . الأبقار . . .
 بالغللمان . . . وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم . ولشدة قهر الخلائق
 منهم وقبح أفعالهم تمنوا مجيء الأفرنج من أى جنس كان وزوال
 هذه الطوائف الخاسرة الذين ليس لهم ملة ولا شريعة ولا
 طريقة يمشون عليها . »

وأكبر الظن أن الجبرتي لم يعتزل الحياة العامة كما تقول اليوم
 ولم يقصر اشتغاله على العلم والتأليف بل خاض مع المشايخ
 فيما خاضوا فيه من الاهتمام بشؤون الرعية بقدر يسمح له
 بالالتفات إلى مشاغله الخاصة فقد كان الثناء على كتابه
 مظهر التقديس قوى عزمه على المضي في كتابة التاريخ ولا بد
 أن يكون نمت إلى علمه رضا السلطان سليم عن كتابه . ثم إن
 لديه من جهة أخرى كتباً يريد أن يستكمل تأليفها منها كتاب
 في الفقه الحنفي وكتاب في الحساب والفلك وتعليق على كتاب
 الموازين الذى ألفه والده وهى بلا ريب مجموعة الدروس التى
 كان يلقيها على طلابه فهو راغب فى استيفاء أبحاثها وجمعها
 فى مجلدات مستقلة . كذلك فطن الجبرتي إلى قلة الكتابة فى
 عصره فعزم على وضع كتاب فى المراسلات يقدم به نماذج

ينهج نهجها الطالب . ويحذو حذوها الراغب . وهناك أولاده
قد كبروا ووجب عليه أن يلاحظ دراستهم ويوجههم التوجيه
الذى يتفق ومنشأه وبيئته وهناك أيضاً أملاكه وعقاراته وأرزاقه
وأحباسه لذلك كان خوضه فى الشؤون العامة لا يكاد يتجاوز
المشورة والرأى وقد علمنا منه أنه كان يزور محمد بك الألفى
والأمير ذا الفقار البكرى ويحضر مجالس أحمد خورشيد باشا
ويختلف إلى المشايخ والأعيان .

وأما الحشاب فألحق بديوان الوالى ولم ينفصل عن المحكمة وهو
الذى أنشأ بقلمه الأوامر التى أصدرها الوزير يوسف باشا إلى
الأقاليم . وقد عاد الشيخ حسن العطار من أسبوط على أثر
رجوع العثمانيين . ولكنه لما رأى القاهرة تموج بالشغب وتضطرب
بالفتن أجمع أمره ورحل إلى الشام .

* * *

فى سنة ١٢٢٠ هـ المصريون للذود عن حقيقتهم من جور
أحمد خورشيد باشا وقد أرهقهم بما فرضه عليهم من مغارم
وسامهم من مظالم . فحضره فى القلعة والتفوا حول محمد على
ليكون والياً عليهم بدلا منه وكان على رأس هذه الحركة القومية
السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وكبار المشايخ فبايعوا
محمد على وولوه من قبلهم ثم بردوا إلى دار السلطنة بما جرى

وكتب قنصل فرنسا إلى دولته : « هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها أحد الباشوات ينادى به الشعب . . . » .

وكانت الفتنة قائمة منذ أشهر وحصار القلعة مستمراً والقنابر

تنهمر على القاهرة ولكن الناس لم تنخلع قلوبهم خوفاً لأنهم

تعودوها أيام الفرنساوية ولم تهدأ الفتنة إلا بعد وصول الرد

من إسلامبول بعزل أحمد خورشيد وتولية محمد علي ابتداء من

٢٠ ربيع أول سنة ١٢٢٠ (١٢ مايو سنة ١٨٠٥) وراح

بعد ذلك أعداء الباشا الجديد يدسون لدى السلطان في الخارج

ويثيرون عليه الفتن في الداخل . وكان عثمان بك البرديسي

ومحمد بك الألفي أميرين من المماليك مختلفين إلا على محاربتة .

وفي إسلامبول محمد باشا خسرو وأحمد باشا خورشيد كلاهما

موتور ناظم . وما جاءت سنة ١٢٢١ حتى حضر قبطان باشا

إلى مصر مستصحباً والياً جديداً لها هو موسى باشا حاملاً في

حقيقته أمراً سلطانياً بتولية محمد علي ولاية سلانيك . ولكن محمد

علي كان واسع الحيلة فليجأ إلى الدين ولوه وهم العلماء والرعية

يستوضح رأيهم فكتب السيد عمر مكرم والمشايخ معروضاً

إلى الدولة على يد قبطان باشا يعربون فيه عن تعلقهم بمحمد

علي ويطلبون استبقاءه في الولاية . وكان قبطان باشا قد بحث

في الموقف وطاب نفساً بمكارم محمد علي فنبد صيغة هذا
المعروض واقترح صيغة أخرى سرعان ما حرروها ووقعها عموم
المشايع والكبار والأعيان عن لسان الرعية وقفل قبطان باشا
واجعاً ومعه موسى باشا وهو راض كل الرضا عن محمد
علي ورجاله .

ونعتقد أن الخبرتي وقع هذه المعارض فهو لم يذكر شيئاً
عن الأول منها الخاص بالمبايعة وعزل أحمد خورشيد باشا بل روى
المعروض الثاني بحروفه وهو الذي طلب قبطان باشا تغيير صيغته
أما الثالث فقد تعجلوا وضعه وافقوه تلفيقاً ولم يتورعوا عن
التزوير في بعض توقيعاته وأختامه وفي هذا يقول الخبرتي :
« هو السبب في عدم نقل هذه الصورة بل فهمت المضمون فقط » .
وبعد أن أحبط محمد علي دسائس أعدائه في الخارج
التفت إلى أعداء الداخل فإذا بالخط يمشي في ركابه فيموت
بعد ثلاثة أشهر عثمان بك البرديسي ويقضى نحبه بعده بشهرين
محمد بك الألفي الكبير الذي يقول وهو يجود بنفسه الأخير :
« قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد علي . . »

* * *

في سنة ١٢٢٠ التي ذكرنا أنها سنة المبايعة لمحمد علي والقاهرة
مصطخبة بالثورة والأمور منتقضة والعامّة مسلحة والجنود

موالية ومخالفة والحالة معقدة مبهمة والقضية كما يقول الجبرتي :
« مشكلة بين أوباش مختلفة . وطباع معوجة منحرفة » ارتأى
الجبرتي أن يجمع التاريخ الذى شغل قلبه خمس عشرة سنة
ولعله استشعر الكبر وهو قد تجاوز الخمسين - ولديه مؤلفات
كثيرة يود التفرغ لتصحيحها وتقويمها وقد قال عن الأوراق
التي كان جمعها لأستاذه الشيخ مرتضى إني : « طرحت تلك
الأوراق في زوايا الإهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر
وتضيع إلى أن حصل عندي باعث من نفسى على جمعها مع
ضم الوقائع والحوادث والمتجددات على هذا النسق » . وأو
أردنا أن نستكنه هذا الباعث النفسى لما غدونا الحقيقة إذا قلنا
إنه مزيج عوامل شتى أولها وأهمها خيبة الأمل في هؤلاء العائدين
« الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون . . . » وثانيها
وأبرزها النجاح الذى لقيه كتابه مظهر التقديس واهتمام
السلطان سليم الثالث به في حين لم تشتهر الكتب الأخرى التي
قدمها إلى الوزير غيره كالشيخ الشرقاوى ومن لف لفه . وثالثها
وأدقها مراجعة نفسه في اقتضاب بعض الحقائق أثناء تأليف
كتاب مظهر التقديس المهدى إليه ومراعاة لبعض المعاصرين
من الأصدقاء وغير الأصدقاء . . . ولقد سهلت عليه كتابته عن
الحملة الفرنسية مباشرة تاريخه الكبير . ولم يثبط من عزيمته

أن كتاب أحمد جلي عبد الغنى « استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم في صندوق العدم » ولا أن « الكراريس التي سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مختلة التهذيب والترتيب » بل ذهب الجبرتي يستعين بأوراقه وكراريسه ، ويقتدح قريحته ، ويكد ذاكرته ، فوضع تمهيداً تحدث فيه عن التاريخ وفضله وفائدته ثم أتبعه مقدمة ضافية تفلسف بها في تقسيم طبقات الناس ثم بسط النصيحة لأرباب الدول باقامة العدل وحسن السياسة وألم بعد ذلك إلمامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثماني وتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة فسرده بعض حوادثها ثم استهل تاريخه بسنة ١١٠٦ وأجل الأحداث إجمالاً إلى سنة ١١٢١ وشرع يعد ذلك يتابع السنين واحدة فواحدة يبسط حوادثها ثم يترجم لمن ماتوا فيها . وقد يرجى ذلك إلى حين لأنه لم يكن على يقين من تاريخ الوفيات وذلك حسب قوله : « على سبيل الإجمال بحسب الإمكان فاني لم أعثر على شيء من تراجم المتقدمين من أهل هذا القرن ولم أجده شيئاً مدوناً في ذلك إلا ما حصلته من وفياتهم فقط وما وعيته في ذهني واستنبطته من بعض أسانيدهم وإجازات أشياخهم على حسب الطاقة » . وقال في مكان آخر : « لم أخترع شيئاً من تلقاء نفسي . والله مطلع على أمري وحدسي » . وقد فصل تفصيلاً

دقيقاً تعادى الفرق التي تؤلف الحامية التركية وتنافس الأمراء والصنّاجق على الحكم ودسائسهم ومصارعهم . وأسهب في ذكر الشعراء يستشهد بالكثير من شعرهم وقد يستشهد بشعر بعض المتقدمين ولكنه لا يشعر بتضلعه في الأدب والشعر ثم إنه فقيه صوفي لا بد أن يولى همه مشايخ الصوفية ويشرح معمياتهم وألغازهم . وهو أيضاً عالم فلكي يجب أن يذكر الأحداث الفلكية ويحاول تفسير الحوادث على ضوءها في بعض الأحيان ولعل علو كعبه في العلوم الحسابية جعله يطيل الجدل في النقود وسكنها وما فيها من ذهب وفضة وهو إلى جانب هذا يدخل في الحياة الخاصة ويسلسل الأسر ويذكر علاقات أفرادها ببعضهم البعض ويثني ويذم حسب مقتضيات الحالة وكما يراها وعنى عناية خاصة بالسلع وأثمانها وتوفرها ونقصها وما إلى كل هذا من شؤون مختلفة ، وأمور مصطفقة . على أنه إلى سنة ١١٧٧ ما برح يكرر ويؤكد أن كل روايته : « بحسب التيسير إذ التفصيل متعذر . وجمع الشوارد في الظلام متعسر . وذلك بحسب الإمكان وما وعاه الفكر والدهن خوان » . لأنه كان يكتب عما حفظ ووعى سواء من « لفظ الشيخ الوالد » أو غيره ولما أدرك العاشرة من عمره وهى سن التمييز انقلبت الحال من السماع إلى العيان وهو القائل : « ولما صرت في سن التمييز رأيت الأشياء على

ما ذكر إلا قليلا . وأصبح منذئذ يستعيد الذكريات القديمة حتى يصلها بما سبق له تدوينه أيام اشتغاله بالتراجم لشيخه السيد مرتضى فيسرد حوادث السنة متابعا ترتيب الشهور ثم يختمها بتلخيص الحالة العامة وتراجم الذين ماتوا . ومنذ أول المائة الثالثة عشرة أخذ في التفصيل والتطويل لأنه كان قد دون كل الحوادث والوقائع ولم يعد في حاجة إلى اقتداح القريحة وكد الذاكرة إلا في الجزئيات .

ولما وصل إلى عهد الحملة الفرنسية اكتفى بإثبات كتابه مظهر التقديس برمته بعد أن حذف مقدمته والفصول التي كتبها صديقه العطار . وعاد إلى أمانته التاريخية من إنصاف المؤرخ لهم وقوم بعض الحوادث وصححها كما يرى ذلك من يقارن بين الكتابين لأنه لم يبق هناك وزير يرضاه ولا أمير يهابه ولأنه يجب ضرب المثل بالفرنسيين لهؤلاء العائدين الذين خيبروا أمله فيهم . . . ثم وإلى تنسيق الحوادث على النمط الذي اختطه لنفسه فقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء وحرى بالجزء الأول إلى آخر سنة ١١٨٩ وبالثاني إلى آخر سنة ١٢١٢ وبالثالث إلى آخر سنة ١٢٢٠ وأسماه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ولا بد من المسارعة إلى القول بأننا لسنا هنا في مقام الكلام على تاريخه إلا بمقدار ما يتصل بالترجمة له لأن البحث في هذا التاريخ

من الجهة العلمية والفنية يستغرق سبغاً ضخماً مستقلاً وإنما
نقصر القول الآن على ملاحظات عامة . فقد امتاز الجبرتي عن
تقدمه من مؤرخي مصر بأنه . عني بالأمور الجلية والحقيقة
والرفيعة والوضيعة ولم يدع شيئاً نفي إلى علمه مهما عظم أو
صغر إلا دونه مخلصاً في دقة مذهشة . وكان رحمه الله عصبى
المزاج سريع التأثير وهى صفة تجعل صاحبها محبباً للاتقان
حيناً عجولاً متبرماً بما لديه أحياناً . لذلك نراه دقيق التحرى
' أميناً في النقل نزيهاً في الرواية يعرب عن آرائه فيما يعرض له
فيتبسط ويتقبض ويسخر ويتهمك ويشتط ويغضب وهو .
دقيق . الملاحظة ألمع الذكاء . نفاذ البصيرة . إلا أنه مهما
ارتفع عن مستوى عصره فقد بقى مرهقاً به لا يسمو إلى النظرة
الشاملة ولا يستخلص العبرة البادرة ولا الحقيقة الاجتماعية .
وهو ضيق الأفق بحكم بيئته لا يعرف شيئاً عما نسميه السياسة
. العليا ولا عن . علاقات مصر بغير تركيا سواء في الشرق أم الغرب
اقتصادياً أو تجارياً فلا يتسع نظره لبعض الأمور السياسية
التي تملئها تلك العلاقات ولا يتنبه إلى كبار الأوربيين الذين
زاروا مصر في عهده . وقد أولع بالتغنى بالعدل والتشجيع على
ظلم الحكام وهو يفهم أن العدل إنما هو إقامة الشريعة الغراء
والرفق بالرعية وقد تأثر الجبرتي كثيراً بالصدقة والصحبة فهو

يعلن ميوله الشخصية وإيثاره هذا على ذلك. لذلك كان والده وأصدقاء والده وأشياخه وأصدقائهم نصيب وافر من تاريخه مع محاولة الإنصاف وإجهاذ النفس على تحرى الحق أو ما يظنه حقاً وقد أتقن فن الترجمة بقدر ما أتيح له ويرى في تصوير الشخصية وإبراز خلق المترجم لهم براعة فائقة وإننا نعد ترجمته لعمان بك ذى الفقار وأوالده الشيخ حسن الجبرتي ولشيخه السيد مرتضى وللأمير محمد بك الألفى من أحسن كتاباته . على أن ولعه بالتراجم جعله يترجم لكل من عرفهم ومن لم يعرفهم من كبراء وأمرأ ومن كل رفيع ووضع حتى خدمة النعال في المساجد والوقادين والمجدوبين وحتى لمن لا يعرف لهم ترجمة (١) وقد ترجم لامرأة واحدة هي الست نفيسة المرادية ولم يترجم لأحد من الحنبلية لأن أهل هذا المذهب لم يكونوا في مصر. ولعله كان يسهو في بعض الأحيان فيروى حادثاً رواه من قبل أو يشير إلى حادث أو أمر يعرفه هو ومعاصروه فلا يوضحه فإذا هو مستبهم علينا اليوم لبعده العهد وانقلاب البيئة . ثم إنه مع اثرته عن أبيه وتلامذة أبيه لم يذكر لنا شيئاً عن تلامذته هو ومريديه . ولا نعرف منهم سوى ابيهم الشيخ مصطفى باكير المعروف

(١) جاء في تراجم المتوفين سنة ١٢٢٥ . « مات الفقيه الفريد الشيخ

على الحساوى الشافعى ولا أعلم له ترجمة الخ .. »

بالساعاتى . ولعله انفرد بين المؤرخين بالتوسع فى وصف القاهرة
ومساجدها وشوارعها وعطفااتها وتاريخ ما فيها من قصور وقلاع
ومنازه على أنه لا يسعنا هنا مجاراته وذكر ما له وما عليه لضيق
المقام .

أما أسلوبه فى الكتابة فقد ثقل عليه طابع العصر وإن كان
قد درس فصيح ثعلب وفقه اللغة وأدب الكاتب كما تقدم .
ولا نعلمه فتزعم أن أسلوبه عامى . . . فإن فيه الفصيح السهل
والجزل المسجوع وقد يعلو ويرتفع ، وينحط ويتضع . وأحياناً
يستمسك ، وطوراً يتفكك ، مما يدل على تباعد فترات الكتابة .
إلا أنه على كل حال فيه قوة وحيوية فهو يرضى القارئ الخاص
ويسليه ، ويعجب القارئ العادى ويفيده .

* * *

أنكر الجبرتى على محمد على مسلكه منذ البدء لأنه لم يفهم
نياته فناصره العداء ووقف منه موقف المعارضة العنيفة . وإذا كنا
نفهم الحزن الذى تنبض به ترجمة محمد بك الألفى وأهل الجبرتى
كانت له به صلة منفعة ، وإذا كنا نفهم دعواه مصرية المماليك
وأحقيتهم بالبلاد واعتبار محمد على ورجاله دخلاء عليهم فإننا
لا نفهم أسفه على إخفاق حملة الانكليز على مصر سنة ١٢٢٢
وقوله : « وما كان إلا ما أرادته المولى جل جلاله من تعسة الإنكليز

والقطر وأهله إلا أن يشاء الله » ولا نفهم كيف يؤثر الجبرقي الإنكليز على محمد علي ويغطي هواه على بصره إلى آخر عمره إلا قليلا .

وراحت الحوادث تتالى وأخذ محمد علي يضع أسساً قوية تقوم عليها دولة قوية وراح يتحسس وجوه النقص في الإدارة ويتلافى فيها ضروب الإفراط والتفريط ورأى أن خير ما يصنعه إنما هو حصر مرافق البلاد في نفسه فأبطل ما نسميه اليوم امتيازات المشايخ وأرغمهم على دفع الضريبة وعين بعض أقاربه على دار السكة وفرض الأموال على الأراضى التى يزعمون أنها مرصدة إلى جهات البر من أيام الملك الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبي وفرض كثيراً من الضرائب على الملتزمين والتجار فضج الناس وثار عمر مكرم والمشايخ يحسبون أن الوالى الحديد يهاب سطوتهم كما كان يهابها أسلافه من قبل ولكنه لم يأبه لهم وسرعان ما تخاذلوا وفشلوا ونفى السيد عمر إلى دمياط وكان أن قال الشيخ الشرقاوى لمحمد علي : « ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم . فقال : أنا لست بظالم وحدى وأنتم أظلم منى » وقال على كتحدا مرة للمشايخ : « أنتم تكذبون علينا ونحن نكذب على الناس » .

وكانت حركة الوهابيين قد اشتدت في الحجاز حتى أقضت

مضاجع رجال الدولة فندبوا لقمعها محمد على فنهض لها وراح
يجهش الجيوش ويبني الأساطيل ولكن أتى له أن يخلى البلاد
من الجيوش والمماليك نحوه يحكون الدسائس وقد اعتدى
عليه في الميدان في وضوح النهار ومع هذا بقي يكظم غيظه ويدارى
ويصانع حتى ضاق ذرعاً وعيل صبره وتحين الفرصة فبطش
بالمماليك يوم السبت ٦ صفر سنة ١٢٢٦ في حادثة القلعة
المشهورة .

وسافرت الحملة وأخفقت فأمدّها محمد على بالمال والرجال
وما هي إلا سنة حتى ضربت البشائر بالنصر فسافر محمد على
إلى الحجاز ثم وقع الصلح وعاد محمد على إلى مصر وكان في
هذه المدة لا تغفل عينه عن تنفيذ منهاج الإصلاح الذى نهجه
لنفسه . وهو بعد جلاء الانكليز أعاد عمارة سور الإسكندرية
وأنفق مالا كثيراً على تحصينها ثم بنى ترسحانة عظيمة بساحل
بوراق وأنشأ مراكب كباراً وصغاراً تسافر فى النيل وضبط
المكوس على البضائع المجاورة ولم يعف أخداً منها . ولا شك
أن الغلاء الذى يشكو منه الجبترى فى كل صفحة من تاريخه
إنما معناه ارتفاع مستوى المعيشة الذى لم يفتن إليه الجبترى
ولا رأى فيه إلا ظلماً مبيهاً . وما يقوم عذراً له أنه بلا شك كان
يقين محمد على بعثمان ذى الفقار أو على بك الكبير أو محمد

بك الألفى ولم يفهم الجبرتي أن هؤلاء كانوا تفعيين لا تهمهم مصر إلا بمقدار ما يفيدون منها . أما محمد علي فله غرض أسمى لأنه أحب مصر واندمج بها وربط مضيئه بمصيرها فعمل على إعادة مجدها الغابر والارتجاع بها إلى مستوى الأمم الحديثة . وقد كافأته مصر بما درت عليه من الخيرات وحقت أمله فيما هدف إليه . وكان لا بد من التنظيم وفيه بادئ ذي بدء عنف وقسوة لاستسلام النفوس إلى عاداتها القديمة من الاستهتار والموادعة فلم ير الجبرتي إلا هذه القسوة وهذا العنف وغفل عن كل ما عداهما ، وقد راجع أحكامه مرتين فقط ولكن على مضض . أولاهما حين أعاد محمد علي بناء السد الأعظم الموصل إلى الإسكندرية وكان قد تخرب وزحفت مياه البحر منه إلى الأرضين فأكبر الجبرتي هذه المهمة وقال : « فلو وفقه الله لشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرئاسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » . والمرة الثانية حين بنى حائطين في رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تغطي الرمال وقت ضعف النيل وفي هذا يقول الجبرتي : « وهذه الفعلة من أعظم الهمم الملوكية التي لم يسبق لمثلها . . . » أما أن محمد علي كان يرسل مهندسيه للكشف على البيوت المتداعية وإنقاذ سكانها من الموت تحت الهدم أو أنه أنشأ في

قصره بشبرا جناًحاً ضم فيه النشء المصرى لتعليمهم أو أنه أرسل بغوثاً إلى الخارج لتلقى اللغات والعلوم فإن هذا وأمثاله لم يحرك حماس الجبرتى ولا أثار إعجابه وبقى على موقفه من التنديد بإدارة محمد على إلى آخر يوم من حياته . .

وكان في هذه الفترة كلها من سنة ١٢٢١ إلى ١٢٤٠ وهى سنة وفاته يدون الحوادث على الطريقة التى شرحناها ويسند الحوادث إلى مخبر ثقة أو شاهد رؤية أو شاهد سماع . أما إذا كانت الحادثة عامة ذهب بنفسه ليعاينها كما ذهب إلى جهة الخطابة تجاه باب الوزير ليشاهد النار التى كانت تنبعث من أحد التلوى وكما ذهب إلى بيت قنصل الإنكليز بدرب البرابرة ليشاهد الآثار المجلوبة من مصر العليا . وكان أيضاً يحاول الاتصال بمن يأنس فيهم معرفة الحوادث ويستجوبهم ويتوسع فى سؤالهم فيما يوافق أغراضه وميوله . ولا بد أن الكثيرين منهم ممن يعرفونه ومن لا يعرفونه كانوا يزورونه للسلام عليه نظراً لاشتهار اسمه واسم أبيه بالعلم وبخاصة علم الفلك . وعلى هذا اتصل بأفراد أسرة آل حبيب وآل همام وبعض رجال الحملة الحجازية وبعض الوهابيين الذين حضروا إلى القاهرة بعد الصلح ولعل عطفه على الوهابيين لا باعث له إلا محاربة محمد على لإياهم . وإذا صدقناه وجب أن نعتبر الجزء الرابع من تاريخه

مذكرات كان يبنى نفسه بتهذيبها وتنسيقها بدليل قوله في آخر سنة ١٢٢٥ : « وانقضت السنة بحوادثها التي قصصنا بعضها إذ لا يمكن استيفائها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم في الرواية فلا أكتب حادثة حتى أتتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار . . . وربما أخرت قيد حادثة حتى أثبتتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها إن شاء الله عند تهذيب هذه الكتابة وكل ذلك من تشويش البال ، وتبكير الحال ، وهم العيال ، وكثرة الاشتغال ، وضعف البدن وضيق العطن » . وما لا شك فيه أن تاريخه نشر على الناس وتداولته الأيدي لأنه يقول في ترجمة الشيخ الشرقاوى المتوفى سنة ١٢٢٧ ما نصه : « ولله ترجم طبقات جمعها في تراجم الشافعية المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن الثاني عشر نقل تراجم المتقدمين من طبقات السبكي والأسنوي وأما المتأخرون فنقلهم من تاريخنا هذا بالحرف الواحد » . وما تجب ملاحظته على الجزء الرابع أن فيه نظرات اجتماعية خللت منها الأجزاء السابقة وأن فصوله مسهبة وسياقه منتظم وإن بدت بعض الفصول قصيرة جداً مما يحمل على التظن في عبث بعض الأيدي فيها .

لا شك أن الجبرتي عاش مروراً طول المدة التي قضها منذ
تولى محمد علي وكلما مرت سنة رأى دولة محمد علي تزيد رسوخاً
وقدمه تعلو درجة وكانت البلاد جمعاء ملتفة حوله فلا يفاد
إلا منه ولا يبرم أمر أو ينقض إلا بأمره . والليالي مواتية ،
والزمان رخاء . وكلما اجتمع الجبرتي بصديقيه العطار والحشاب
لم يأل من الشكوى والتذمر . وكانا يقضيان في منزله ببوراق
الليالي الطويلة ويبيطان عنده لارتفاع الكلفة . والتحام الألفة .
والحشاب يزيد هزلاً . والعطار يزيد صحة وقوة . وقد جاب
الآقطار الشرقية وعاد إلى مصر وفي عينيه آفاق جديدة . وفي
فؤاده صور وعبر . فهو يحدث عن دمشق والقسطنطينية
والجبال والصحراء والأودية والبحار ولكن نفسه لم تكن مستريحة
إلى حال الحمل التي رأى عليها الشرق وأهله وخنوعهم إلى
الحكام المستبدين وانصراف العلماء إلى المنفعة والمصلحة . وكان
غير المسلمين وخاصة الأرمن في مصر قد تنفسوا الصعداء من
ظلم العصور السالفة وعاد محمد علي يطبق عليهم الشريعة
السمحاء تطبيقاً صحيحاً لا جور فيه ولا انحراف فلا يهانون

في كرامتهم ولا تصادر أموالهم لأتفه الأسباب بل استخدمهم
 ولي الأمر فخدموه في صدق وإخلاص ولذلك أثروا وارتفع
 شأنهم وصارت لهم مكانة ملحوظة في البلاد إلا أن عقلية
 الجبرتي تأبى عليه التسليم بهذا كله لهم ولكن العطار كان أوسع
 أفقاً وأسلس قياداً فأفاد فيمن أفادوا . ولم يستنكف من التقرب
 من محمد علي وتأليف الكتب وإهدائها إليه ولعله كان الوسيط
 في توظيف الشيخ خليل الجبرتي بن عبد الرحمن في بلاط
 محمد علي لأنه أقنع عبد الرحمن بأنه لا تقبل الدنيا إلا على من
 اتصل بالوالي ولا يصبح « مرزوقاً » إلا من كان في خدمة
 الدولة .

ولا شك في أن خليلاً أخذ عن والده علم الفلك كما أخذه
 والده عن جده لذلك كانت وظيفة التوقيت في قصر شبرا على
 ساحل النيل أليق ما تكون له . ولا نعلم على التحقيق سن خليل
 أيامئذ وإنما عرفنا أن والدته كانت ربيبة على درويش الرومي
 وأنه ولد قبل المائة الثالثة عشرة .

وكان التأليف والتصنيف والإملاء والتدريس شغلاً شاغلاً
 لعبد الرحمن الجبرتي ولا نظنه لي دعوة صديقه الخشاب إلى
 حفلة سمر حين وجه إليه هذه الأبيات :

يا سيدى وسندى ويا عريق المحتد
 ويا أخا منظره جلاء عين الأرمد
 ويا ضيائي اللذ به في ليل خطبي اهتدى (١)
 يا راحتي وراحتي وساعدى وعضدى
 أدعوك تأتى مسرعا ويا لذاك من يد
 نؤم قصرأ جامعا كل المعانى الشرد
 نصغى إلى مزهر من أضحي فريد البلد

بل كيف يلبي الدعوة وهو الذى أحفظه وأوغر صدره على
 أشياخ ذلك العهد حضورهم مثل هذه الحفلات فغمزهم غمزا
 موجعا . ولدعهم لدعا أليما . ولنا أن نذكر هنا أن انتشار
 أجزاء تاريخه في حياته وما في هذا التاريخ من نقد مرير تناول
 به بعض الناس لا بد أن يكون قد جعل منهم أعداء له . وإذا
 كان أقرانه من الأشياخ يتسع صدرهم لمثل هذا النقد فإن
 سليمان أغا السلحدار مثلا وهو يقول عنه إنه « الداهية العظمى
 والمصيبة الكبرى » لا يسيغ هذا الوصف ولا بد أن يكون له
 أصبع في المأساة التى ختمت بها حياة الجبرقى .

(١) يتسكن الذال أى الذى كما قال المتنبي :

وإذا الفتى طرح الكلام معرضا في مجلس أخذ الكلام اللذ عنى
 أى الذى عناه . وأبيات الحشاش واردة في ديوانه فقط .

وكانت السنون تمر وصحة الجبرتي تضعف وإخوانه القدماء يموتون فالصاوي والفيومي والسادات والمهدي ورفيقه الصعيدي الذي دفنه بالقرافة التي كان ناظراً عليها، كل أولئك أصبحوا خبراً بل مادة لهذا التاريخ الذي ينفث فيه نغمته على الحكم ويطيل ويقصر في سرد كلياته وجزئياته . ولكن موت الخشاب سنة ١٢٣٠ خضد عزيمته، وفث في عضده ، وبخاصة أن العطار كان قد هجر الأدب وانصرف إلى العاوم الشرعية واختص بالشيخ حسن القويني الذي أصبح بعده شيخاً للأزهر وواظب على التدريس والتحصيل فلم يعد وقته يتسع لمثل مجالسهم الأولى وأسماهم العهيدة .

* * *

في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٣٧ (١٩ يونيو سنة ١٨٢٢) ريع عبد الرحمن الجبرتي وأهل بيته بدخول لمة من الناس عليهم يحملون ابنه خليلاً بين الموت والحياة . . وقد علم أبوه أن بعض الأشقياء هاجموا إيلاً في طريق شبرا بينا كان قافلاً من قصر محمد علي إلى منزله، وأنخنوه جراحاً ثم ارتبطوه برجل حماره ولما أصبح الصباح رآه الناس وعلموا من اصطربلاه ومن الكراريس التي يحملها أنه خليل الجبرتي . وما عثم الجريح أن قضى نحيبه بين العويل والزفرات ، وكثرت

الإشاعات والأقاويل إلا أن واحدة منها فقط رسخت في الأذهان فحواها أن محمد بك الدفتردار صهر محمد علي أغرى به الأتقياء تشفياً من والده لأنه اطلع على أجزاء من تاريخه وأنكر نقده الجارح للحكم القائم ، فاستأذن محمد علي في الفتك به ولما لم يظفر بالوالد فتك بالولد .

ولكن هذه الإشاعة لا تقوم على ثبوت لأن أمثال محمد بك الدفتردار لا يعوزهم الإذن للانتقام من أعدائهم ولا هذه هي الطريقة التي يسلكونها لتنفيذ أغراضهم وليس محمد علي ممن يرضى عن مثل هذا التشفى من شيخ عالم فلكى ومصر إذ ذاك في قبضته وفي غير هذا الأساوب مندوحة عنه .

وإذا اتهمنا سليمان أغا السلحدار فقط للسبب الذى قدمناه فتكون المسألة شخصية لا دخل لأحد من رجال الدولة فيها .

ومهما يكن من الأمر فقد بلى عبد الرخن الجبىرى بقاصمة الظهر وكان منشغلاً بتاريخ الثورة اليونانية فكسر أقلامه وضرب بكراريسه عرض الحائط ولا بد أن يكون الإغراق فى القراءة والكتابة قد أضعف بصره حتى إنه لما فاض دمه على ابنه وتمادى به الحزن ذهب بصره وقبع فى داره أعمى لا يقرأ ولا يكتب وأصبحت حياته نكرة حتى مات على فراشه سنة ١٢٤١ (١٨٢٥) رحمه الله تعالى .

هذه خاتمة حياة عبد الرحمن الجبرتي نعتقد صحتها اعتماداً على النصوص التي بين أيدينا والتي نود أن نستعرضها .

لقد بقي تاريخ الجبرتي محظوراً طبعه وتداوله إلى أن رفع هذا الحظر المغفور له الخديوي توفيق باشا فطبع الجزءان الثالث والرابع في أيامه ثم طبع الأول والثاني أيام المغفور له عباس الثاني في أواخر المائة الثالثة عشرة الهجرية وظهرت ترجمة فرنسية كاملة منه بين ١٨٨٨ و ١٨٩٦ في تسعة أجزاء قام بها شفيق منصور بك (يكن) وعبد العزيز كحيل بك وجبرائيل نقولا كحيل بك وإسكندر عمون أفندي وجاء في ترجمة الجبرتي عن وفاته في المقدمة الفرنسية ما ترجمته « في ليلة ٢٧ رمضان ١٢٣٧ (١٨ يونيو سنة ١٨٢٢) إذ كان الجبرتي عائداً من قصر محمد علي بشبرا إلى القاهرة نحتق بطريق شبرا وربط بحبل إلى رجل حمارة » .

ونحن لا نحفظ من هذه الرواية إلا تاريخ الواقعة فقط . ونعرف من جهة أخرى أن المسيو ألكسندر كردان ترجمان القنصلية الفرنسية بالاسكندرية ترجم إلى لغته كتاب مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين ونشره فصولاً في الجريدة الآسيوية في مارس سنة ١٨٣٤ ويوليو وديسمبر سنة ١٨٣٧ ثم جمعت هذه الفصول في كتاب مستقل نشر سنة ١٨٣٨

أى بعد موت الجبرتي بثلاث عشرة سنة وترجم للجبرتي
 فى مقدمة كتابه معتمداً على المعلومات التى استقاها من أسرته
 والعهد به قريب بعد فذكر عن موته ما ترجمته : « إن أحد
 أولاد عبد الرحمن الذى يعمل لدى محمد على باشا هاجمه بعض
 القتلة فى طريقه من شبرا إلى القاهرة فى ليلة من ليالى رمضان
 سنة ١٨٢٣ (١٢٣٨) ومات متأثراً بجراحه فبكاه عبد الرحمن
 إلى أن ذهب بصره ولم يعيش بعده طويلاً .

ونحن من هذه الرواية نحفظ الواقعة وذهاب بصر الجبرتي
 ولا نأخذ بالتاريخ لأن أحد الرحالة الإيطاليين واسمه ج . ب .
 بروكى زار الجبرتي يوم أول ديسمبر سنة ١٨٢٢ فى منزله ببولاق
 فوجده أعمى قابلاً فى بيته . فتكون هذه الزيارة سابقة للتاريخ
 الذى ذكره المسيو كردان ومتأخرة عن التاريخ الذى زعم فيه
 المترجمون الأربعة أنه مات فيه وهذا ما ذكره الرحالة الايطالى
 بروكى فى يومياته^(١) بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٨٢٢ أى
 يوم الزيارة (جزء ١ صفحة ١٥١) :

« زودنى المسيو دروفى فى الإسكندرية برسالة إلى عالم عربى
 يدعى عبد الرحمن الجبرتي وقال لى إنه ضليع فى علم الهيئة، فما

(١) يوميات عن مصر وسورية والنوبة تأليف ج . ب . بروكى طبعت
 بعد وفاة المؤلف فى خمسة أجزاء بمدينة باسانوبى سنة ١٨٤١ و ١٨٤٣

عتمت أن زرتة بصحبة الحاجة مسرة ترجمان القنصلية الفرنسية
وكم كان دهشى عظيماً حين وجدت هذا الفلكي أعمى . فسأله
إذا كان لدى الفلكيين في مصر آلات يرصدون بها حركات
الكواكب؟ فقال إنه ليس لديهم شيء منها وإن الذين ينصرفون
إلى هذا العلم قليلون وقد يكون لدى بعضهم بعض آلات مجلوبة
من أوروبا . فسأله إذا كان في إمكانهم أن يعرفوا مواعيد
الكسوف والخسوف؟ فأجاب نفياً فسأله أيضاً إذا كانوا يضعون
التقاويم للجماهير؟ فقال إن لديه بعضاً منها ولكن ليس فيها
تقويم خاص . إلى أن قال : «على أنى لم أرد اطالة الحديث مع
هذا الشيخ الطيب الذي قيل لي عنه فيما بعد إنه أعلم بالتاريخ
العربي المصري منه بعلم الفلك وإن له فيه كتاباً موثقاً به .
وهو سبق له التعرف بالفلكي الفرنسي نويه^(١) وقد سألتني عنه
وقال إن هذا العالم يمكنه التبحر في علم الفلك لأنه عدا الآلات
التي لديه يتقاضى من الحكومة ريالين يومياً وأما هو (أى
عبد الرحمن) فكان يتقاضى بعض الأجر في وقت مضى أيام
طلبوا منه عمل التقاويم ولكن الباشا الحالي لا يكافئ الذين يقبلون
على مثل هذا العلم والاجتهاد ولا يدفع شيئاً إلى أحد، لذلك لن

(١) كان الفلكي الفرنسي نوي (١٧٤٠ — ١٨١١) قد توفي منذ

أحدى عشرة سنة ولا يعرف ذلك لا بروكى ولا الجبرتى .

نرى اليوم في القاهرة كلها عالماً فلكياً واحداً .

وهذه الصفحة من يوميات الرحالة الإيطالي بروكى تلى ضوءاً باهتاً على أواخر أيام الجبرتي .

أما أن الجبرتي مات سنة ١٨٢٥ فقد أخذنا برواية المستر لين في كتابه : « المصريون المعاصرون » إذ ذكر فيه أن عبد الرحمن الجبرتي : « مات في سنة ١٨٢٥ أو سنة ١٨٢٦ بعد وصولي إلى القاهرة بفترة وجيزة » .

وأما أن قتيل شبرا هو خليل الجبرتي فقد توفرت لدينا معلومات خاصة تدل على أن عبد الرحمن توفي عن ابنه حسن ومحفوظ فلا بد أن يكون القتيل خليلاً الذي ذكرناه فيما تقدم . ودلتنا هذه المعلومات على أن الشيخ حسن لم يعقب بل أعقب المرحوم الشيخ محفوظ ابنة هي المرحومة توحيدة محفوظ الجبرتي التي أعقبت محمد يوسف وزينب وكلاهما أعقبا وقد تكنى أولاد محمد يوسف بكنية الجبرتي وإن كانوا أحفاداً حفيدته وأسرتها محمد يوسف وزينب (عبد العزيز) والأسرتان معروفتان اليوم في القاهرة . وبعد موت الجبرتي احترق منزل الصنادقية وأكلت النار مكتبة الجبرتي فلم يبق لها من أثر وضاعت كراريس تاريجه بعد سنة ١٢٣٦ وهذا المنزل اليوم متهدم بال ينكره زائره ويقف فيه ضيق الصدر تحز في قلبه شجون وذكريات .

وكانت وكالة الازارية بيولاى على النيل فبعدت اليوم
عن ساحله لتغير مجراه وقد أصبحت طللاً خراباً تقوم فيها
سوق دورية للفلاحين بعد أن كانت مراحاً للعلم والعلماء
ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

أجل لقد انتقل عبد الرحمن الجبرتي إلى الرفيق الأعلى سنة
١٢٤١ (١٨٢٥ م) ودفن بتربة الصحراء إلى جانب أسلافه
رحمهم الله جميعاً وقبره معروف اليوم . وقد جزع عليه صديقه
الشيخ حسن العطار جزعاً شديداً فكفل ولديه وتعهد أسرته
وحفظ له سالف صحبته وأخلص له حياً وميتاً .

وهكذا أطفأ الموت كوكباً كشف ضياؤه الإبهام عن عهود
ثلاثة هي أواخر حكم المماليك والحملة الفرنسية وأوائل حكم
محمد علي . وقد بذل في وضع تاريخه حياة أنضجها العلم ووسعتها
استقامة السليقة ورجاحة العقل ولولاه لضاع من تاريخنا جزم
كبير وكفاه فخراً أنه اليوم مرجع يعتمده الغربيون بله الشرقيين .
ولم يكن الجبرتي راضياً عن العهود الثلاثة التي أرخها لأن
عهد المماليك كان حافلاً بالدسائس والدماء ولا سبيلاً إلى
الحكم والاستمساك فيه إلا بها . فالذمم مخفورة ، والضماير فاسدة ،
وغرائر الشر لا كايح لها ولا وازع .

أما عن الحملة الفرنسية فلم ينصف الجبرتي أحد لأن الافرنج قالوا إنه شيخ متعصب والشرقيون قالوا إنه ناصر الفرنسيين .
على أن تعصبه كان طبعياً بل ضرورياً لأنه صدى شعور عصره الذي يعد الخطوة الناقلة من القرون الوسطى إلى العصر الحديث . والجبرتي عالم من جلة علماء المسلمين يريد لدينه العزة والتمكين فكيف يرتاح إلى أجانِب هبطوا البلاد ودخلوها بالسيف والميدفع وهم نصارى مهما تقولوا وتخربوا وأنكروا دينهم وتحببوا إلى المسلمين . وأى لوم عليه إذا وقف منهم موقف الريبة ، ونظر إليهم بعين المقت والضغينة .. وكيف لا يكبر عليه أن يصطنعوا أسافل الأقليات ويجعلوا منهم سادة بعد أن كانوا من حشو العامة . ومع هذا فالجبرتي قد اعترف للفرنسيين بفضلهم وأشاد بعلمهم وأعجب بعلمهم ونظامهم ، فأنصلهم حيث وجب إنصافهم . وندد بمناقضهم ومفاحشهم حيث وجب التنديد . فلم يكن تقييده لهم تعصباً عليهم ولا إنصافهم نصرة لهم بل ظل عادلاً حكمه ، سليماً ضميره ، خالصاً دينه .
رامحاً يقينه .

وأما وقوفه موقف المعارضة من محمد على فهو لم يشهد إلا طور التحضير وفيه ما فيه من انقلاب عنيف . ولا شك في أنه لو مد الله في أجله لغير رأيه وهلل لمحمد على إعجاباً وإكباراً . على

أن في طغيان عصره عليه عذراً له ولا يخرج المرء من دنيا
إلى دنيا بمثل السهولة التي يخرج بها من بلد إلى بلد .
وبعد . فالجبرتي مسلم منصف لم يكن تعصبه ذمياً أعمى
بل معقولا نيراً . ثم هو رقيق حواشي النفس ، مستقيم العاطفة
موفور الإنسانية يستشعر الرحمة للضعفاء ويشدو النصفة للناس
أجمعين . وهو أيضاً أبنى النفس يمقت الظلم أيّاً كان مصدره ؛ لذلك
شنع على الحكام عسفهم واستبدادهم ، وسوأ على الرؤساء إثراءهم
من العباد ، وأنكر الفوضى ، وحمل على الظلم لأن العدل رائده ،
والإقسط غايته . فهو بهذه الخلال وبما كتب وأفاد يعد علماً
من أعلام الإسلام .

مطبوعات حديثة

في سنة ١٩٤٨

كتب ثقافية

٣٠	في الأدب الجاهلي	للدكتور طه حسين بك
٢٠	من حديث الشعر والنثر	» » » »
٢٥	الأيام — ثان	» » » »
٤٠	عثمان (الفتنة الكبرى أول)	» » » »
٢٥	شجرة البؤس	» » » »
٥٠	على هامش الطب — ثان	للدكتور سليمان عزمى باشا
٢٠	عبقريّة الإمام	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢٥	قصة العرب في أسبانيا	للأستاذ علي الجارم بك
٢٠	فارس بنى حمدان	» » » »
٢٠	آلام جحا	للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

صوت العالم	للأستاذ ميخائيل نعيمة	٢٥
مشاهد القيامة في القرآن	للأستاذ سيد قطب	٢٥
الجاحظ	للأستاذ شفيق جبري	٢٥
رجعة فرعون	للسيدة بنت الشاطئ	١٥
من الأدب المقارن	للأستاذ نجيب العقيلي	٢٥
ديودور الصقلي في مصر	للأستاذ وهيب كامل	٢٥
شاعر الطيارة	للبدوي الملم	٢٥
الشروق (ديوان شعر)	للأستاذ محمد كامل الصيرفي	٢٠
الإدراك الحسي عند ابن سينا	للأستاذ محمد عثمان نجاني	٣٠
رتشارد الثاني	للأستاذ محمد عوض إبراهيم بك	١٥
البندقية	للدكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق إسكندر	٦٠
فوشيه	للأستاذ أحمد الصاوي محمد	٣٠
رباعيات عمر الخيام	للأستاذ وديع البستاني	٢٠

طيف الوليد	للأستاذ عبد السلام رستم	٢٠
الدفاع عن الوطن	لليوزباشى السيد فرج	٢٠
العلم فى فنجان - جزءان	للأستاذ محسن عبد السلام	٤٥
المسند - رابع	للشيخ أحمد محمد شاكر	٨٠
التربية وطرق التدريس	للدكتور عبدالعزيز عبدالمجيد والأستاذ صالح عبدالعزيز شحاتة	٤٠
الحيوان فى خدمة الطب	للدكتور عزى توفيق	٣٠
يوليوس قيصر	للأستاذ محمد حمدي بك	١٥

قصص مدرسية

الصديقتان	للأستاذ كامل كيلانى	٥
ابن جبير	» » »	٢٠
العنكب الحزين	» » »	٥
مخاطرات أم مازن	» » »	٧

للأستاذ كامل كيلاني ٥	النحلة العاملة
للأستاذ محمد عطية الإبراشي ٥	جواهر الأم
» » » » ٥	الأميرة المدبرة
» » » » ٥	الأميرة الصامته
» » » » ٥	سيف العدالة
» » » » ٥	الطيور البيضاء
» » » » ٥	السمة الذهبية
» » » » ٥	بنت قاطع الخشب
» » » » ٥	يوم سعيد
» » » » ٥	الطفلان اليتيمان
» » » » ٥	جميلة والوحش
» » » » ٥	النمر الأسود
» » » » ٥	الراعي الأمين

سلسلة اقرأ

- مرح الوليد : (رقم ٦٢) للأستاذ على الجارم بك ٥
- رقيق الأرض (رقم ٦٣) للأستاذ نظمي لوقا ٥
- الأغذية الشعبية (رقم ٦٤) للأستاذ حسن عبدالسلام ٥
- عمر بن عبدالعزيز (رقم ٦٥) للأستاذ أحمد زكي صفوت ٥
- مملكة العذاري (رقم ٦٦) للدكتور أحمد زكي أبوشادي ٥
- أمير قصر الذهب (رقم ٦٧) للأستاذ طاهر الطناحي ٥
- جمال الدين الأفغاني (رقم ٦٨) للأستاذ عبدالقادر المغربي ٥
- رحلة الربيع (رقم ٦٩) للدكتور طه حسين بك ٥
- البحرني (رقم ٧٠) للأستاذ خليل شيبوب ٥

مكتبة الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

ترقبوا قريباً مجموعة

ذخائر العرب

التي ستعنى بإحياء تراث العرب
الحالد ونشر نفائسه في تحقيق دقيق
والإخراج فني رفيع بإشراف لجنة من
كبار العلماء هم حضرات أصحاب
المعالي والسعادة والعزة والفضيلة :

محمد حلمي عيسى باشا والدكتور عبد الوهاب عزام بك
والدكتور طه حسين بك . والدكتور أحمد أمين بك
والأستاذ علي البخارم بك والأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر

تصدر عن

دار المعارف بمصر

الكتاب

تصدر عن دار المعارف بمصر
رئيس التحرير الأستاذ عادل الغضبان
هى المجلة التى يجتمع فيها من ذخائر الفكر
كل تليد وطارف

• فى أول أكتوبر سنة ١٩٤٨ تستأنف الصدور بعد
عطلتها الصيفية

• فى أول نوفمبر سنة ١٩٤٨ تصدر جزءاً خاصاً
بإبراهيم باشا

مجلة الكتاب هى المجلة التى يشترك فى تحريرها أبرع
الأقلام العربية .

ص
١٠

ثمن الجزء

١٠٠

قيمة الاشتراك بمصر والسودان

١١٠

قيمة الاشتراك بالبلاد العربية

واجبنا نحو أطفالنا وشبابنا

إن واجبنا نحو أطفالنا وشبابنا يقضى علينا أن نضع بين أيديهم القصص المفيدة الممتعة يطالعونها في بعض أوقات العطلة لتنعقد بينهم وبين الكتاب الصالح أواصر صداقة متينة تمهد لهم طريق السعادة العقلية . . .

ودار المعارف للطباعة والنشر بمصر يسرها أن تعلن لجميع حضرات الأساتذة المربين وأولياء أمور الطلبة أنها خصصت بهذا الميدان الحيوى جزءاً كبيراً من نشاطها فأصدرت مجموعات أنيقة مختلفة لمطالعات الأطفال والشباب توافر فيها حسن الاختيار وجمال الإخراج واعتدال الثمن . . .

دار المعارف بمصر

روضۃ الطفل

- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كئكت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفرو والجرس
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطلة السوداء

أول مجموعة من نوعها
باللغة العربية يجيد
الطفل فيها قصصاً مفيدة
مزينة بالصّور المبتكرة
ومطبوعة بالألوان الجميلة



المجموعة الجديدة بأن توضع بين يدي كل طفل
لتصعد به إلى الدرجة الأولى من سلم المعرفة
في حُبِّهِ من المتعة والتسلية.....
تصدرها دار المعارف بمصر

بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب



أفلاها

- ١ عمرون شبا
- ٢ مملكة السحدر
- ٣ كبرياء الدين البغدادى
- ٤ آله الزمسان

قصص حية رشيقة تغذي روح الطالب
وتجولوه في جميع مراحل النمو
عناصر المنعة والثقافة وسمو النفس

المجموعة التي تحبب الكتاب بالمتاح إلى الطالب
فيقبل عليه صغيرًا ويتعلق به كبيرًا
ويكون له نعمة الزاد في سفرة الحياة



تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

أفلاها
عمرون شبا



أفلاها
مملكة السحدر



أفلاها

كبرياء الدين البغدادى



اقرا

• عنوان هذه السلسلة خير ما يوجهه
إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما يوجهه
إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.

• السلسلة الشهرية الوحيدة التي تعمل
منذ أكثر من خمس سنوات
على جعل الثقافة في متناول الجميع.

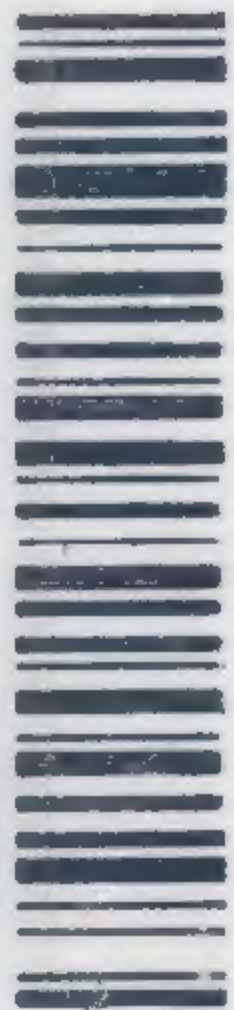
• نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة
كبيرة الفائدة في كل منزل يسكنها
منها الشباب والشيوخ على السواء.

• تصدرها دار المعارف بمصر في طباعة
بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين
والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ فؤاد

ثمن النسخة ٥ قروش

٦٠ ملاً في فلسطين وشرق الأردن ٦٠ غرشاً
٦٠ فلساً في العراق ٦٠ غرشاً في سوريا

Bibliotheca Alexandrina



0695385

202
2
7sh